أيها الراحلون

رواية واقعيه من رحم الألم



مهند محمد

mohnd181818@gmail.com

قَدْ يَحْبُكَ اَلنَّاسُ

وَأَنْتَ تَمْتَلِكُ كُلَّ شَيْءٍ

وَلَكِنْ كَمْ عَدَدُ اَلَّذِينَ يُحِبُّونَكَ

وَأَنْتَ لَا تَمْتَلِكُ شَيْئًا

إهداء إلى كل تلك النفوس المقيدة والمكبلة في غياهب السجون

وإلى كل تلك الأرواح العارية والتي فارقتنا دون أن تلقي نظرة وداع ودون أن تترك لنا ذلك الأمل بالإلقاء.

وإلى كل تلك الأرواح العاشقة للحرية والمتمردة على كل ذلك الخوف والأمل والظلم والطغيان.

وإلى كل تلك النفوس المكلومة بفراق من أحبت واشتاقت لذلك اللقاء وما زالت تحيا على ذلك الأمل والاشتياق.

كَانَ شَخْصًا لَطِيفًا لَمْ تُغَيِّرْهُ اَلظُّرُوفُ حَتَّى عِنْدَمَا قَسَا عَلَيْهِ كُلُّ اَلنَّاسِ لَمْ تَتَغَيَّرْ طِبَاعَهُ نَعَمْ اِبْتَعَدَ كَثِيرًا وَلَكِنَّهُ لَا زَالَ يَحْمِلُ ذَلِكَ اَلْقَلْبِ اَلْأَبْيَضِ اَلطَّيِّبِ وَالرُّوحِ اَلطَّيِّبَةِ.

فَارِسُ شَابٌ رِيفِيٌّ بَسِيطٍ نَشَأَ فِي مُجْتَمَعٍ رِيفِيٍّ وَسَطَ أُسْرَةٍ بَسِيطَةٍ تَحْكُمُهَا عَادَاتُ وَتَقَالِيدُ وَرِثُوهَا عَنْ أَجْدَادِهِمْ وَوَرِثُوهَا لِأَبْنَائِهِمْ.

نَشَأَ وَتَرَعْرَعَ فِي زَمَنٍ لَمْ تَكُنْ تَحْكُمُهُ كُلُّ هَذِهِ اَلتَّعْقِيدَاتِ اَلَّتِي نَرَاهَا اَلْيَوْمَ كَانَ هُمْ أُسْرَتُهُ هُوَ تَعْلِيمُ أَبْنَائِهِمْ وَتَرْبِيَتُهُمْ بِالشَّكْلِ اَلصَّحِيحِ وَرَغْمُ بَسَاطَةِ اَلرِّيفِ وَالْحَيَاةِ فِيهَا لَمْ تَكُنْ حَيَاةُ فَارِسِ بَسِيطَةً بَلْ كَانَ يَحْكُمُهَا اَلْكَثِيرُ مِنْ اَلْقَسَاوَةِ وَاَلَّذِي يَخْتَلِطُ بِالْحُبِّ.

تَدَرُّجُ فَارِسِ فِي تَعْلِيمِهِ وَكَانَ يُعَانِي مِنْ قَسَاوَةِ اَلْأَهْلِ فِي كَثِيرٍ مِنْ اَلْأَحْيَانِ بِحُجَّةِ اَلْمَصْلَحَةَ وَالْخَوْفَ عَلَى مُسْتَقْبَلِهِ بِالْإِضَافَةِ إِلَى قَسَاوَةِ اَلْفَقْرِ وَطَبِيعَةِ اَلْحَيَاةِ اَلْقَاسِيَةِ.

لَمْ تَكُنْ طُفُولَةُ فَارِسِ تَسِيرُ كَمَا يَتَمَنَّى كُلُّ اَلْأَطْفَالِ أَوْ كَمَا يَعِيشُهَا كُلُّ اَلْأَطْفَالِ فَقَدْ كَانَ يُعَانِي اَلْكَثِيرُ مِنْ قَسَاوَةِ اَلْأَهْلِ مِمَّا جَعَلَهُ يَبْتَعِدُ عَنْ أَقْرَانِهِ اِجْتِمَاعِيًّا فَلِمَ تَسِرْ طُفُولَتَهُ كَمَا يَتَمَنَّى أَوْ كَمَا يَعِيشُهَا أَقْرَانُهُ وَكُلِّ ذَلِكَ تَرَكَ أَثَرًا كَبِيرًا فِي نَفْسِهِ فَأَصْبَحَ اَلتَّعَلُّمُ لَدَيْهِ عِبْئًا كَبِيرًا لَا يَسْتَطِيعُ تَحَمُّلُهُ

لَمْ تَكُنْ أُسْرَةُ فَارسِ تَرَى مَا يَرَاهُ أَوْ تُلَبِّي لَهُ بَعْضِ رَغَبَاتِهِ فِي مُخَالَطَةِ أَقْرَانِهِ أَوْ اَلْعَيْشِ مَعَهُمْ بِحُرِّيَّةِ اَلطُّفُولَةِ وَبَرَاءَتِهَا بَلْ كَانَ أَسِيرُ اَلْبَيْتِ أَوْ اَلْمَدْرَسَةِ تَتَرَقَّبُهُ كُلُّ اَلْعُيُونِ وَمَا يَنْتَظِرُهُ إِذَا أَخْطَأَ فَقَطْ اَلْعِقَابَ أَوْ اَلْعَصَا اَلَّتِي يَحْمِلُهَا اَلْمُدَرِّسُ أَوْ اَلْأَبِ فِي اَلْبَيْتِ

وَفِي وَسَطِ كُلِّ هَذِهِ اَلظُّرُوفِ اَلَّتِي عَاشَهَا فَارِسُ مَضَتْ أَيَّامُ طُفُولَتِهِ وَتَعْلِيمِهِ وَسَطَ أَجْوَاءٍ مَشْحُونَةٍ وَظُرُوفٍ قَاسِيَةٍ وَاخْتَلَطَتْ اَلْمَشَاعِرُ لَدَيْهِ مَا بَيْنَ اَلْخَوْفِ وَالْكُرْهِ وَالْيَأْسِ وَحَتَّى تَحْصِيلِهِ اَلدِّرَاسِيِّ كَانَ مُتَذَبْذِبًا عَلَى اَلرَّغْمِ مِنْ ذَكَائِهِ وَتَفَوُّقِهِ عَلَى أَقْرَانِهِ.

وَمَعَ مُضِيِّ تَعْلِيمِهِ اَلِابْتِدَائِيِّ وَانْتِقَالِهِ إِلَى اَلْمَرْحَلَةِ اَلتَّالِيَةِ لَمْ يَكُنْ فَارِسُ يَتَمَتَّعُ بِذَلِكَ اَلتَّقْدِيرِ اَلِاجْتِمَاعِيِّ اَلَّذِي يَتَمَنَّاهُ كُلُّ شَخْصٍ كَانَ أَقْرَبَ إِلَى اَلِانْطِوَائِيَّةِ وَالْعَيْشِ فِي أَجْوَاءٍ قَاسِيَةٍ وَمَشْحُونَةٍ وَقَدْ تَسَبَّبَ ذَلِكَ لَهُ بِالْكَثِيرِ مِنْ اَلْعُدْوَانِ مِنْ أَقْرَانِهِ وَالْأَذِيَّةُ اَلْجَسَدِيَّةُ مِمَّا تَرَكَ اَلْكَثِيرَ مِنْ اَلْآثَارِ اَلنَّفْسِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ اَلسَّلْبِيَّةِ فِي حَيَاتِهِ

دائِمًا مَا كَانَ يُحَاوِلُ اَلتَّمَرُّدُ عَلَى ذَلِكَ أَوْ إِثْبَاتِ نَفْسِهِ أُمًّا بِالْعُدْوَانِيَّةِ أَوْ اَلتَّمَرُّدِ عَلَى قَرَارَاتِ اَلْأَهْلِ رُبَّمَا لِإِثْبَاتِ نَفْسِهِ أَوْ اَلتَّخَلُّص مِنْ ذَلِكَ اَلضَّغْطِ اَلْكَبِيرِ اَلَّذِي كَانَ يَعِيشُهُ وَلَكِنَّهُ دَائِمًا مَا كَانَ يَصْطَدِمُ بِعُقُوبَاتِ اَلْأَهْلِ أَوْ كَرَاهِيَةِ اَلْأَقْرَان مِمَّنْ يُعَايِشُهُمْ وَدَائِمًا مَا كَانَ يَتَعَرَّضُ لِلْأَذَى اَلنَّفْسِيِّ وَالْجَسَدِيِّ مِنْ شَتَائِمَ وَضَرْبٍ.

أَصْبَحَتْ حَيَاةُ فَارِسِ اَلدِّرَاسِيَّةِ عِبَارَةً عَنْ جَحِيمٍ بِسَبَبِ كُلِّ تِلْكَ اَلْعُدْوَانِيَّةِ اَلَّتِي يَتَعَرَّضُ لَهَا وَسَطَ مَدْرَسَةٍ رِيفِيَّةٍ ضَعِيفَةٍ إِدَارِيٍّ وَتَدْرِيسِيًّا تَحَكُّمَهَا اَلْعُدْوَانِيَّةَ وَالتَّسَيُّبَ وَغِيَابَ جَانِبِ اَلرِّقَابَةِ وَأَبْسَطَ اَلْأَسَالِيبَ اَلتَّرْبَوِيَّةَ اَلْجَيِّدَةَ بِالْإِضَافَةِ إِلَى كُلِّ تِلْكَ اَلضُّغُوطِ اَلنَّفْسِيَّةِ وَالْجَسَدِيَّةِ وَاَلَّتِي لَا تَخْلُو مِنْ اَلْعُقُوبَاتِ وَالْعُدْوَانِ وَظُرُوفِ اَلْحَيَاةِ اَلسَّيِّئَةِ وَالْقَاسِيَةِ اِجْتِمَاعِيًّا وَاقْتِصَادِيًّا وَاَلَّذِي جَعَلَ مِنْ مَنْزِلِ فَارِسِ عِبَارَةً عَنْ سِجْنِ وَالْمَطْلُوبِ مِنْهُ فَقَطْ هُوَ اَلتَّحْصِيلُ اَلدِّرَاسِيُّ .

لَمْ يَعْمَلْ اَلْأَهْلُ عَلَى تَنْمِيَةِ وَتَعْزِيزِ اَلدَّوْرِ اَلِاجْتِمَاعِيِّ لِفَارِسِ أَوْ تَرْكِ جُزْءًا بَسِيطًا لَهُ مِنْ اَلْحُرِّيَّةِ أَوْ مُتَنَفِّسٍ اِجْتِمَاعِيٍّ يُعَزِّزُ فِيهِ وُجُودَهُ وَشَخْصِيَّتَهُ.

كَانَتْ أُسْرَةُ فَارِسِ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ يُؤَسِّسُونَ لَهُ حَيَاةٌ جَيِّدَةٌ وَتَعْلِيمًا جَيِّدًا وَيَضْرِبُونَ لَهُ اَلْأَمْثَالُ عَنْ تِلْكَ اَلشَّخْصِيَّاتِ اَلنَّاجِحَةِ وَمَا حَقَّقَهُ لَهُمْ نَجَاحِهِمْ اَلدِّرَاسِيِّ وَلَكِنَّهُمْ اغفلوا اَلْكَثِيرَ مِنْ اَلْجَوَانِبِ اَلْأُخْرَى وَاسْتَخْدَمُوا كُلَّ تِلْكَ اَلْأَسَالِيبِ اَلْخَاطِئَةِ فِي اَلتَّرْبِيَةِ اَلْمَبْنِيَّةِ عَلَى اَلْعُنْفِ اَلْجَسَدِيِّ وَالتَّرْهِيبِ وَعُزْلَةِ اِجْتِمَاعِيًّا

كَانَ جُلُّ حُلْمِ فَارِسِ مُشَارَكَةَ أَقْرَانِهِ وَأَقْرِبَائِهِ فِي لَعِبِ اَلْكُرَةِ وَمُشَارَكَتِهِمْ أَفْرَاحَهُمْ وَالْخُرُوجُ فِي اَلْمُنَاسَبَاتِ وَالْأَعْيَادِ.

وَمَعَ مُرُورِ كُلِّ مُنَاسَبَةٍ أَوْ اِحْتِفَالِ أَوْ رُؤْيَةِ أَنْشِطَةِ أَقْرَانِهِ كَانَ فَارِسُ يَنْظُرُ بِحَسْرَةِ وَأَلَمِ تَخَالُطِهَا اَلدُّمُوعَ وَالْحُزْنَ.

وَفِي أَحَدِ اَلْأَعْيَادِ قَرَّرَ فَارِسُ اَلتَّمَرُّدُ وَالْخُرُوجُ وَمُشَارَكَةُ أَقْرَانِهِ بِاللَّعِبِ وَالْفَرَحِ بِغِيَابِ وَالِدِهِ وَلَمْ يَمْضِ وَقْتٌ طَوِيلٌ حَتَّى رَأَيْتُ وَالِدُهُ يَأْتِي إِلَيْهِ وَيَقُومُ بِضَرْبَةِ وَتَعْنِيفِهِ وَجَرِّهِ إِلَى اَلْبَيْتِ وَالدِّمَاءِ تَخَالَطَ وَجْهُهُ

وَتَمْضِي اَلسُّنُونَ مِنْ حَيَاةِ فَارِسِ لَا يَعْرِفُ فِيهَا سِوَى كِتَابَةِ وَقَلَمِهِ وَتِلْكَ اَلْقِيَمُ اَلَّتِي زُرِعَتْ فِيهِ وَحَاوَلَ اَلْحِفَاظُ عَلَيْهَا وَسَطَ كُلِّ تِلْكَ اَلِاضْطِرَابَاتِ وَحَتَّى أَحْوَالِ أُسْرَتِهِ لَمْ تَكُنْ عَلَى مَا يُرَامُ فَقَدْ كَانَ يَحْكُمُهَا عَدِيدُ اَلْخِلَافَاتِ مَا بَيْنَ اَلْأَبِ وَالْأُمِّ وَحَتَّى مَا بَيْنَ اَلْأُمِّ وَأَهْلِهَا وَمَا بَيْنَ اَلْأَبِ وَعَائِلَتِهِ.

كَانَ فَارِسُ يَلْجَأُ إِلَى جُدَّةَ وَالَّذِي كَانَ يَعِيشُ مَعَهُ وَالَّذِي تَجَاوَزَ عُمْرُهُ اَلثَّمَانِينَ وَدَائِمًا مَا كَانَ يُحْدِثُهُ عَنْ أَبْنَائِهِ وَعَنْ أَيَّامِ شَبَابِهِ وَصِبَاهُ وَحَتَّى عَنْ وَالِدِهِ اَلَّذِي لَمْ يَكُنْ يَوْمًا مِمَّنْ يُحِبُّونَ اَلدِّرَاسَةُ وَالتَّعْلِيمُ.

دَائِمًا مَا كَانَ يَرَى جَدُّهُ أَقْرَبَ اَلنَّاس إِلَيْهِ فَفِيهِ مِنْ اَلْحُبِّ وَالْحَنَانِ مَا لَمْ يَجِدْهُ مِنْ أَحَدٍ وَدَائِمًا مَا كَانَ يَسْمَعُ مِنْهُ عَدِيدَ اَلْأَحَادِيثِ وَاَلَّتِي تَدْخُلُ نَفْسَهُ وَتُعَلِّمُهُ اَلْكَثِيرُ مِمَّا يَجْهَلُ

وَمَعَ اِنْتِقَالِ فَارِسِ إِلَى مَرْحَلَةٍ دِرَاسِيَّةٍ مُتَقَدِّمَةٍ كَانَتْ هُنَا نُقْطَةَ اَلتَّحَوُّلِ فِي حَيَاتِهِ فَأَصْبَحَ أَكْثَرَ إِحْسَاسًا بِالْمَسْؤُولِيَّةِ وَأَكْثَرُ مَحَبَّةٍ لِمُخَالَطَةِ اَلنَّاسِ وَالتَّعَرُّفِ عَلَى أَصْدِقَاءٍ جُدَّدَ وَتَمْكِينُ نَفْسِهِ اِجْتِمَاعِيًّا وَدِرَاسِيًّا كَانَ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَسْتَقِلَّ كُلُّ تِلْكَ اَلضُّغُوطِ فِي اَلْمَنْزِلِ لِأُظَاهِرِ نَفْسَهُ وَتَفَوُّقَهُ خَارِجَ أَسْوَارِ اَلْبَيْتِ وَمُنَافِسِهِ أَقْرَانُهُ وَإِثْبَاتُ نَفْسِهِ وَالْمُضِيِّ إِلَى اَلْأَمَامِ دُونَ اَلنَّظَرِ إِلَى اَلْخَلْفِ .

أَصْبَحَ فَارِسُ كَثِيرَ اَلتَّنَقُّلِ وَالسَّفَرِ بِسَبَبِ عَدَمِ وُجُودِ مَدَارِسَ لِلْمَرَاحِلِ اَلْمُتَقَدِّمَةِ فِي تِلْكَ اَلْبَلْدَةِ اَلرِّيفِيَّةِ مِمَّا تَرَكَ لَهُ اَلْكَثِيرَ مِنْ اَلْحُرِّيَّةِ دُونَ اَلْخَوْفِ مِنْ أَعْيُنِ اَلرِّقَابِ وَأَصْبَحَ يَنْدَمِجُ اِجْتِمَاعِيًّا مَعَ عَدِيدِ اَلْأَصْدِقَاءِ مِمَّنْ دَخَلُوا مَعَهُ فِي نَفْسِ اَلْمَرْحَلَةِ وَهُنَا أَنْتَقِلُ فَارِسُ إِلَى مَرْحَلَةِ اَلتَّعْلِيمِ اَلذَّاتِيِّ رَغْبَةً مِنْهُ فِي إِثْبَاتِ نَفْسِهِ وَقُدُرَاتِهِ وَالْحُصُولِ عَلَى تَقْدِيرِ اَلْجَمِيعِ .

وَرَغْمُ كُلِّ ذَلِكَ كَانَ هُنَاكَ شَيْءٌ مِنْ اَلْمَاضِي يُخَالِطُ رُوحَهُ وَيَشُدُّهُ إِلَى اَلْخَلْفِ وَدَائِمًا مَا كَانَ يَحْدُثُ نَفْسَهُ هَلْ أَنَا مُخْطِئٌ أَوْ عَلَى حَقٍّ؟

رُبَّمَا هِيَ عُقْدَةُ اَلنَّقْصِ أَوْ رُبَّمَا اَلْخَوْفُ مِنْ اَلْقَادِمِ.

دَائِمًا مَا كَانَتْ تَشْتَعِلُ دَاخِلَةً تِلْكَ اَلتَّنَاقُضَاتِ وَتِلْكَ اَلْحُرُوبُ اَلدَّاخِلِيَّةُ اَلَّتِي تُزْعِجُ أَنْفَاسَهُ.

كَانَ لِزَامَنْ عَلَى فَارِسِ أَنْ يَنْتَصِرَ عَلَى نَفْسِهِ أَوَّلاً ثُمَّ عَلَى أَقْرَانِهِ وَأَنْ يُدَاوِيَ كُلُّ تِلْكَ اَلْجُرُوحِ اَلْقَدِيمَةِ اَلَّتِي لَمْ تَلْتَئِمْ بَعْدُ.

وَهُنَا كَانَ دَوْرُ اَلْأَصْدِقَاءِ حَيْثُ اِخْتَلَطَ اِجْتِمَاعِيًّا بِعَدِيدِ اَلْأَصْدِقَاءِ مِمَّنْ كَانَ يُسَامِرُهُمْ وَيُجَالِسُهُمْ لَمْ يَمْضِ وَقْتٌ طَوِيلٌ بَعْدَ تَقَدُّمِ فَارِسِ فِي اَلْعُمْرِ وَتَغَيُّرِ كُلِّ تِلْكَ اَلْمَفَاهِيمِ وَالتَّصَوُّرَاتِ اَلَّتِي كَانَ يَعِيشُهَا فِي طُفُولَتِهِ فَقَدْ أَخَذَ بِالِانْدِمَاجِ مَعَ اَلْأَصْدِقَاءِ وَعَيْشِ حَيَاتِهِ اَلطَّبِيعِيَّةِ كَشَابٍّ فِي مُقْتَبَلِ اَلْعُمْرِ وَتَحَوَّلَتْ كُلَّ تِلْكَ اَلْأَحْلَامِ وَالتَّصَوُّرَاتِ اَلَّتِي كَانَ يَعِيشُهَا فِي طُفُولَتِهِ إِلَى مَنْحًى آخِرٍ أَكْثَرَ تَعْقِيدًا وَصُعُوبَةٌ بَلْ وَأَخْذِ أَكْثَرَ بِالشُّعُورِ بِالْمَسْؤُولِيَّةِ وَكِبَرُ اَلْعَقَبَاتِ اَلَّتِي تَنْتَظِرُهُ

لَمْ تَعُدْ أَحْلَامُ اَلطُّفُولَةِ هِيَ نَفْسُهَا أَحْلَامَ اَلْيَوْمِ وَلَمْ تَعُدْ مَشَاكِلُ اَلْأَمْسِ كَمَشَاكِلِ اَلْيَوْم بَلْ زَادَتْ تَعْقِيدًا وَصُعُوبَةٌ وَأَخَذَا بِاكْتِشَافِهَا وَفَتْحِ أَبْوَابِ اَلْحَيَاةِ المؤصدة اَلَّتِي كَانَ يَجْهَلُهَا

وَفِي هَذِهِ اَلْمَرْحَلَةِ كَانَ لَدَيْهِ بَعْضُ اَلْأَصْدِقَاءِ اَلرَّائِعِينَ مِمَّنْ يُشَارِكُونَهُ مَقَاعِدَ اَلدِّرَاسَةِ وَيُشَاطِرُونَهُ بِطُمُوحِ اَلنَّجَاحِ وَالتَّفَوُّق وَيَعِيشُ مَعَهُمْ أَجْمَلَ لَحَظَاتِ اَلْعُمْرِ بِالْمِزَاحِ وَاللَّعِبِ وَاللَّهْوِ وكَانَ مِنْ بَيِّنٍ اوَلَاؤِكَ اَلْأَصْدِقَاء صَدِيقَيْنِ مُقَرَّبِينَ أَحَدُهُمْ رَافَقَهُ مُنْذُ طُفُولَتِهِ وَالْآخَرُ اِجْتَمعَ فِيهِ بِهَذِهِ اَلْمَرْحَلَةِ

وَكَانَ (أَحْمَدْ) مُرَافِقٍ لَهُ مُنْذُ طُفُولَتِهِ شَابَّ وَسِيمْ وَمُجْتَهِدٍ هَادِئَ اَلطَّبْعِ أَصْغَرَ إِخْوَتِهِ وَالِدَهُ مُتَوَفٍّ وَعمِلَتْ أُمُّهُ عَلَى تَرْبِيَتِهِ مُنْذُ صِغَرِهِ حَضِّي بِاهْتِمَامٍ وَحُبِّ كُلِّ إِخْوَتِهِ وَاَلَّذِينَ يُكَبِّرُونَهُ سِنًّا وَكَانَتْ أُسْرَتُهُ مَيْسُورَةً اَلْحَالِ تُلَبِّي كُلَّ اِحْتِيَاجَاتِهِ عَلَى عَكْسِ فَارِسِ.

أَمَّا (كَمَيِّتٍ) فَقَدْ كَانَ شَابٌّ طَوِيلٌ وَوَسِيمْ وَمَرِحٍ لَأَبْعَدَ اَلدَّرَجَاتِ وَهُوَ مِنْ يُشْعِلُ أَجْوَاءَ اَلْمَرَحِ وَالسَّعَادَةِ بِمِزَاحِهِ وَنُكْتَةِ اَلطَّرِيفَةِ وَمَقُولَاتِهِ اَلْجَمِيلَةِ وَقَدْ كَانَ يَعِيشُ فِي أُسْرَةٍ تُعَانِي مِنْ بَعْضِ اَلْمَشَاكِلِ اَلْأُسَرِيَّةِ فَأَمَّهُ مُطْلَقَةٌ وَهُوَ يَمِيلُ إِلَيْهَا أَكْثَرَ مِنْ وَالِدِهِ وَالَّذِي تَزَوَّجَ مِنْ اِمْرَأَةٍ أُخْرَى وَيَعِيشُ كَمَيِّتٍ مَعَهُمْ فِي بَيْتِ وَالِدِهِ

لَمْ أَكُنْ أَشْعُرُ يَوْمًا أَنَّ (كَمَيِّتٍ) يَكُن ذَلِكَ اَلْحُبِّ لِوَالِدِهِ كَبَقِيَّةِ اَلْأَبْنَاء أَوْ بِالْأَحْرَى لَمْ يَكُنْ يَحْظَى بِاهْتِمَامِ وَالِدِهِ وَرِعَايَتِهِ مِمَّا تَرَكَ ذَلِكَ اَلشَّرْخِ اَلْكَبِيرِ فِي عَلَاقَتِهِمْ وَفِي نَفْسِ كَمَيِّتٍ.

وَقَدْ مَضَتْ اَلْأَيَّامُ مُسْرِعَةً وَكَانَ اَلْأَصْدِقَاءُ يَعِيشُونَ أَحْلَامًا مُخْتَلِفَةً وَطُمُوحَاتِ عَالِيَةً وَكُلَّ شَخْصٍ يَضَعُ أَمَامَ عَيْنَيْهِ هَدَف يَسْعَى إِلَيْهِ.

وَبَعْدُ مُرُورِ مَا يُقَارِبُ اَلْعَامَيْنِ عَلَى اِجْتِمَاعِ هَؤُلَاءِ اَلْأَصْدِقَاءِ وَعَيْشِهِمْ لِأَفْضَل لَحَظَاتِ اَلْعُمْرِ مِنْ مَرِحٍ وَخِلَافَاتٍ وَصُلْحٍ.

كَانَ لَا بُدَّ مِنْ اَلْفِرَاقِ فَكُلُّ شَخْصٍ سَيَذْهَبُ إِلَى مَدْرَسَةٍ لِيَخْتَارَ مَجَالَهُ اَلتَّعْلِيمِيَّ وَيَتَجَهَّزُ لِحَيَاتِهِ اَلْمِهْنِيَّةِ كَمَا يَتَمَنَّى

فَأَحْمَد كَانَ طُمُوحُهُ أَنْ يُصْبِحَ طَبِيبُ وَكَمَيِّتِ كَانَ طُمُوحُهُ أَنْ يُصْبِحَ مُهَنْدِسًا أَمَّا فَارِسُ فَقَدْ تَأَثَّرَ كَثِيرٌ بِفِرَاقِ أَصْدِقَائِهِ وَأَخْذٌ يَحْدُثُ نَفْسَهُ بِالِالْتِحَاقِ بِهُمْ وَعَدَمُ مُفَارَقَتِهِمْ وَكَانَ طُمُوحُهُ هُوَ أَنْ يَدْرُسَ اَلْحُقُوقَ أَوْ اَلْإِعْلَامِ إِلَّا أَنَّ رَغْبَةَ اَلْأَهْلِ كَانَتْ غَيْرَ ذَلِكَ.

بَلْ وَتَمَّ إِجْبَارُهُ بِاخْتِيَارِ مَا يُرِيدُونَ وَهُنَا أَخْذُ فَارِسِ بِمُحَادَثَةِ وَالِدِهِ أَبِي أَوَدُّ اَلِالْتِحَاقُ بِالْمَجَالِ اَلْعِلْمِيِّ فَأَنَا أُحِبُّ اَلْمَوَادُّ اَلْعِلْمِيَّةُ وَأَعْتَقِدُ أَنِّي سَأَنْجَحُ بِهَا وَأَحْصُلُ مُعَدَّلَاتٍ جَيِّدَةً.

اَلْأَبُ :

لَا يَا بُنَيَّ لَنْ تَنْجَحَ فَهُنَاكَ اَلْكَثِيرُ مِمَّنْ سَبَقَكَ وَكَانَ أَقْدَرُ مِنْكَ وَلَكِنَّهُ فَشِلَ وَلَمْ تُكَلَّلْ دِرَاسَتُهُ وَتَعَبُهُ بِالنَّجَاحِ

فَارِسِ :

صَدِّقْنِي يَا أَبَي سَأَنْجَحُ وَاجْتَهَدَ لِتَحْقِيقِ مَا أُرِيدُ اُتْرُكْنِي اِخْتَارَ مَا أُرِيدُ وَسَأُثْبِتُ لَكَ ذَلِكَ

اَلْأَبِ

لَا لَنْ أَسْمَحَ لَكَ بِذَلِكَ سَتَخْتَارُ اَلْمَجَالَ اَلْأَسْهَلَ تَعْلِيمِيًّا وَتَحْصُلُ عَلَى وَظِيفِيَّةٍ تَعِيشُ مِنْ خِلَالِهَا

وَبُعْدُ جِدَالٍ طَوِيلٍ وَأَخْذٍ وَرَدَ وَجدَ فَارِسُ نَفْسَهُ مُجْبَرٌ عَلَى اَلْقَبُول بِاخْتِيَارِ اَلْأَهْلِ وَفَارَقَ أَصْدِقَائِهِ اَلَّذِينَ ذَهَبُوا إِلَى مَدَارِسَ عِلْمِيَّةٍ لِإِكْمَال دِرَاسَتِهِمْ وَوَدَّعَ فَارِسُ أَصْدِقَائِهِ بِحَسْرَةٍ وَأَلَمٍ وَلَكِنَّهُ دَائِمًا مَا كَانَ يَلْتَقِي بِهُمْ لِفَتْرَةٍ قَصِيرَةٍ يَتَبَادَلُونَ اَلسَّلَامُ وَالتَّحِيَّاتُ وَالْحَدِيثُ اَلْقَصِيرُ وَلَكِنْ لَيْسَتْ كَمَا كَانَتْ فِي اَلسَّابِقِ

لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ فَارِسًا أَنَّ هَذَا اَلْفِرَاقِ قَدْ يُلْحِقُهُ فِرَاقًا أَكْبَرَ وَيُؤْلِمهُ بِشَكْلٍ أَكْبَرَ وَهُنَا تَبَدَّلَتْ حَيَاةَ فَارِسِ كَانَ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَسْتَكْمِلَ طَرِيقَةَ اَلتَّعْلِيمِيِّ وَأَنْ يَخْتَلِطَ بِأَصْدِقَاءِ جُدُدٍ وَلَكِنْ لَمْ تَكُنْ كَمَا فِي اَلسَّابِقِ

وَبِالْعَوْدَةِ إِلَى جدِّ فَارِسِ وَاَلَّذِي كَبُرَ بِالْعُمْرِ وَتَقَدَّمَ بِالسِّنِّ وَبَانَتْ اَلشَّيْخُوخَةُ عَلَى وَجْهِهِ وَتَصرُّفَاتِهِ وَحرَكَاتِهِ وَقَدْ كَانَ فَارِسُ يُحِبُّهُ كَثِيرًا وَيَرَى فِيهِ خَلِيلَ رُوحِهِ وَقُدْوَتَهُ وَكَانَ كَثِيرًا مَا يُجَالِسُهُ وَيَنَامُ مَعَهُ بِنَفْسِ اَلْمَكَانِ وَيُرَافِقُهُ كَثِيرًا لِرُؤْيَةِ أَقَارِبِهِ وَعَمَّاتِهِ.

كَانَ هَذَا اَلشَّيْخِ اَلْكَهْلِ كَبِيرًا فِي اَلْعُمْرِ عَرْكَتَهُ اَلْحَيَاةُ وَعُرِكُهَا وَأَخَذَتْهُ اَلْحَيَاةُ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَأْخُذْ مِنْهَا شَيْئًا.

جَلَسَ مَعَهُ فَارِسُ وَقَدْ بَدَتْ عَلَيْهِ آثَارُ اَلتَّعَبِ وَالْمَرَضِ.

فَارِسٌ:

كَيْفَ حَالُكَ يَا جِدِّيٌّ هَلْ أَنْتَ بِخَيْرٍ وَهَلْ تَحْتَاجُ لِشَيٍّ.

اَلْجِدُّ:

لَا يَا بُنَيَّ لَمْ أَعُدْ اِحْتَاجَ لِشَيْءٍ رُبَّمَا أَصْبَحَتْ فَقَدْ اِحْتَاجَ لِهُدُوءِ اَلنَّفْسِ وَالرَّاحَةِ؛ لَمْ يَبْقَ فِي اَلْعُمْرِ اَلْكَثِيرَ وَأَظُنُّ أَنَّهُ قَدْ اِقْتَرَبَ اَلْوَدَاعُ وَلِقَاءٌ مِنْ أَحَبَّ فَقَدْ فَارَقَتْ 12 وَلَدًا مِنْ اَلذُّكُورِ وَالْإِنَاثِ بِعَدِيدِ اَلْأَمْرَاضِ وَالْأَحْدَاثِ وَفَارَقَتْ زَوْجَتِي وَعَدِيدُ اَلنَّاسِ وَالْأَقَارِبِ وَالْأَصْدِقَاءِ وَعَايَشَتْ عَدِيدَ اَلْحُرُوبِ وَالنَّكَبَاتِ وَالنَّكَسَاتِ . . .

لَقَدْ تَعِبَتْ كَثِيرًا وَيَبْدُو أَنَّهُ قَدْ حَانَ وَقْتُ اَلرَّحِيلِ وَالرَّاحَةِ وَالْوَدَاعِ.

فَارِسٌ:

لَا يَا جِدِّيٌّ أَنْتَ لَا تَزَالُ شَاب وَبِعِزِّ قُوَّتكَ أَلَم تَكُنْ تُحَدِّثُنِي دَائِمًا عَنْ تِلْكَ اَلْأَيَّامِ اَلْجَمِيلَةِ وَتِلْكَ اَلْمَصَاعِبُ وَالْمَتَاعِبُ اَلَّتِي عَايَشْتُهَا وَتَجَاوَزَتْهَا، أَلَم تُعَلِّمُنِي اَلصَّبْرَ وَالْقُوَّةَ أَلَم تُعَلِّمُنِي عَدَمُ اَلْيَأْسِ وَالصَّبْرِ.

اَلْجِدُّ:

نَعَمْ يَا بُنَي وَلَكِنْ لِكُلِّ شَيْءٍ فِي هَذِهِ اَلْحَيَاةِ نِهَايَةِ فَلَا شَيْءَ يَسْتَمِرُّ وَيَبْقَى وَالْحَيَاةِ فِي تَجَدُّدِ مُسْتَمِرٍّ فَنَحْنُ جِيلٌ قَدْ مِلْت اَلْحَيَاةِ مِنْهُ وَمَلَلْنَا مِنْهَا وَلَا بُدَّ مِنْ دِمَاءٍ جَدِيدَةٍ وَجِيلٍ جَدِيدٍ يُتَابِعُ مَسِيرَةَ اَلْحَيَاةِ وَحِكَايَةِ اَلْأَجْيَالِ اَلْمُتَتَابِعَةِ فَلِكُلِّ جِيلِ رِسَالَةِ وَغَايَةٍ وَهَدَفٍ سَيُؤَدِّيهَا وَيَرْحَل .

وَكَمَا رَحَلَ مِنْ سَبَقْنَا سَنَرْحَلُ وَيَرْحَل غَيْرَنَا

هَلْ تَعْلَمُ يَا فَارِسَ أَنَّ اَلْمَوْتَ هُوَ أَبْسَطُ أَنْوَاعِ اَلْفِرَاقِ لِأَنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ مِنْ فَأَرَقكَ؛ فَأَرَقُكَ مُرْغَمًا بِحُكْمِ اَلْقَدَرِ وَفَارَقَكَ عَلَى اَلْحُبِّ وَالْعَهْدِ اَلَّذِي جَمَعَكَ بِهِ. أَمَّا أَصْعَبُ أَنْوَاعِ اَلْفِرَاقِ أَنْ يُفَارِقَكَ أَبْنَاؤُكَ وَأَصْدِقَاؤُكَ وَأَقْرِبَائِكَ بِاخْتِيَارِهِمْ وَرَغْبَةٍ فِي اَلِابْتِعَادِ عَنْكَ.

هَلْ تَعْلَمُ مُنْذُ مَتَّى لَمْ أَرَ اِبْنِي اَلْبِكْرُ وَاَلَّذِي اِخْتَارَ فِرَاقِي وَبُعْدَيْ وَلَمْ يَخْطُرْ فِي بَالِهِ اَلسُّؤَالِ عَنِّي إِلَّا مُجْبَرًا أَوْ صُدْفَةٍ؟

مُنْذُ **25** عَامًا وَكَانَ فِرَاقُ مِنْ فَارَقَتْهُمْ بِسَبَبِ اَلْمَوْتِ لَا يَكْفِي فَالْيَوْمُ اِفْتَقَدَ أَبْنَائِي وَأَحَنَّ لَهُمْ وَهُمْ عَلَى قَيْدِ اَلْحَيَاةِ يَبْتَعِدُونَ وَلَا يَقْتَرِبُونَ وَيَهْجُرُونَ مِنْ بَذْلِ اَلشَّبَابِ وَالْقُوَّةِ لِأَجْلِهِمْ.

لَقَدْ تَخَلَّيْتُ عَنْ كُلِّ مَا أَمْلِكُ لِأَجَلِ سَعَادَتِهِمْ وَالْيَوْمِ يَتْرُكُونَنِي وَهُمْ بِعِزِّ قُوَّتِهِمْ وَأَنَا بِأَشَدّ اَلْحَاجَةِ لَهُمْ وَلِقُرْبِهِمْ.

لَمْ يَعْلَمْ فَارِسُ مَا يُجِيبُ بَلْ سَيْطَرَ اَلصَّمْتُ عَلَيْهِ وَقَدْ كَانَ يَعْلَمُ بِوُجُودِ بَعْضِ اَلْخِلَافَاتِ اَلْقَدِيمَةِ بَيْنَ اَلْأَبِ وَابْنِهِ وَاَلَّتِي كَانَ يَجْهَلُ سَبَبُهَا وَاخْتَارَ اَلصَّمْتُ لِكَيْ لَا يَزِيدُ مِنْ أَوْجَاعِ ذَلِكَ اَلْكَهْلِ وَلِكَيْ لَا يُفَكِّرُ فِي اِحْتِمَالِ مُفَارَقَةِ جُدَّةَ اَلَّذِي أُحِبُّهُ وَكَانَ أَحِنّ اَلنَّاسُ عَلَيْهِ مُنْذُ صِغَرِهِ.

أَخْذُ فَارِسِ بِالتَّفْكِيرِ كَثِيرًا بِكَلَامِ جُدَّةَ وَلَكِنَّهُ حَاوَلَ نِسْيَانُ ذَلِكَ وَعَدَمَ اَلتَّفْكِيرِ بِهِ كَثِيرًا لِعَدِيدِ اَلْأَسْبَابِ فَلَمْ يَقْتَنِعْ بِأَنَّ أَلَمَ فِرَاقِ اَلْمَوْتِ أَقَلَّ بِكَثِيرٍ مِنْ أَلَمِ فِرَاقِ اَلْهَجْرِ وَخُصُوصًا لِمَنْ تُحِبُّ.

وَلَمْ يَرُدْ اَلتَّفْكِيرُ أَيْضًا بِاحْتِمَالِ مَوْتِ جَدِّهِ وَمُفَارَقَتِهِ

وَتَمْضِي اَلْأَيَّامُ مُسْرِعَةً فِي حَيَاةِ فَارِسِ اَلَّذِي يَسْتَكْمِلُ تَعْلِيمُهُ وَتُحِيطُ بِهِ كُلُّ تِلْكَ اَلْمَشَاكِلِ اَلْعَائِلِيَّةِ وَالْأُسَرِيَّةِ وَكُلِّ اَلْخِلَافَاتِ بَيْنَ وَالِدِهِ وَأَقَارِبِهِ وَاَلَّتِي لَمْ يَكُنْ بَعِيدًا عَنْهَا بَلْ كَانَ يُعَايِشُهَا وَيَرَاهَا بَامْ عَيْنَيْهِ وَيَسْمَعهَا بِأُذُنَيْهِ

وَفِي ذَلِكَ اَلْيَوْمِ اَلَّذِي لَنْ يَنْسَاهُ فَارِسُ كَانَ عَائِدًا مِنْ اَلْمَدْرَسَةِ عِنْدَ اَلظَّهِيرَةِ وَوَجَدَ ذَلِكَ اَلتَّجَمُّعِ أَمَامَ بَيْتِهِ مِنْ بَعْضِ أَقَارِبِهِ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ مَاذَا حَدَثَ.

فَارِسٌ:

مَاذَا حَدَثَ

أَحَدُهُمْ يُجِيبُ:

جَدُّكَ قَدْ سَاءَتْ حَالَتُهُ اَلصِّحِّيَّةُ وَسَقَطَ وَتَعَرَّضَ لِبَعْضِ اَلْجُرُوحِ وَالْكُسُورِ وَتَمَّ نَقْلُهُ إِلَى اَلْمُسْتَشْفَى لِتَلَقِّي اَلْعِلَاجِ

لَمْ يَعْلَمْ فَارِسُ مَاذَا يَصْنَعُ أَوْ بِمَاذَا يَتَحَدَّثُ وَيُجِيبُ بَلْ اِخْتَارَ اَلصَّمْتُ وَالِانْتِظَارُ عَلَى أَمَلِ عَوْدَةِ جَدِّهِ وَلِقَائِهِ مِنْ جَدِيدٍ وَاخْتَلَطَتْ مَشَاعِرَهُ مَا بَيْنَ اَلْحُزْنِ وَالْيَأْسِ وَالْأَمَلِ وَالِاشْتِيَاقِ

وَبَعْدِ مُرُورِ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ أَخَذَ اَلْجِدُّ بِالتَّعَافِي بَعْد إِجْرَاءِ بَعْضِ اَلْعَمَلِيَّاتِ اَلْجِرَاحِيَّةِ وَاجْتِمَاعِ فَارِسِ بِعَمِّهِ اَلْأَكْبَرِ وَالَّذِي حَدَّثَهُ جَدُّهُ عَنْهُ سَابِقًا وَالَّذِي سَمِعَ بِسُوءِ حَالَةِ وَالِدِهِ اَلصِّحِّيَّةَ وَأَتَى رُبَّمَا لِإِلْقَاءِ نَظْرَةِ اَلْوَدَاعِ وَطَلَبَ اَلسَّمَاحُ مِنْ وَالِدِهِ أَوْ رُبَّمَا لِكَفِّ لِسَانِ اَلْعَاتِبِينَ وَالشَّامِتِينَ.

كَانَتْ أَيَّامًا صَعْبَةً عَاشَهَا فَارِسُ وَأَهْلُهُ فَالْجِدَّ اَلْآنَ بِحَاجَةِ إِلَى عِنَايَةٍ كَبِيرَةٍ وَاهْتِمَامِ أَكْبَرَ مِمَّا مَضَى فَقَدْ أَصْبَحَ بِحَاجَةٍ لِمَنْ يُدَبِّر لَهُ حَتَّى أَبْسَطَ أُمُورِهِ.

لَمْ يَمْضِ اَلْكَثِيرَ مِنْ اَلْوَقْتِ فَحَالَةَ اَلْجِدِّ أَخَذَتْ بِالِاسْتِيَاءِ وَهُوَ يَطْلُبُ أَحِبَّاءَهُ وَأَوْلَادَهُ لِيُلْقِيَ نَظْرَةَ اَلْوَدَاعِ اَلْأَخِيرَةِ عَلَيْهِمْ وَفِي وَسَطِ كُلِّ هَذَا اَلتَّجَمُّعِ سُمِعَتْ أَحَدُهُمْ يَقُولُ إِنَّهُ يُحْتَضَرُ لَمٌّ يَتَمَالَكُ فَارِسَ نَفْسَهُ بَلْ اِقْتَرَبَ مِنْهُ وَقَامَ بِتَقْبِيلِهِ وَغَلَبَتِهِ اَلدُّمُوعَ فِي تِلْكَ اَللَّحْظَةِ

لَقَدْ حَانَ وَقْتُ اَلْفِرَاقِ وَأَخْذِ اَلْجِدِّ بِفِقْدَانِ تَرْكِيزِهِ وَغِيَابِهِ عَنْ اَلْوَعْيِ وَهُنَاكَ رَجُلٌ مُسِنٌّ يَقُومُ بِتَنْقِيطِ اَلْمَاءِ فِي فَمِهِ وَيُطَالِبُهُ بِنُطْقِ اَلشَّهَادَةِ وَذِكْرَ اَللَّهُ وَقَدْ كَانَ يُرَدِّدُهَا بِثَبَاتٍ وَقُوَّةٍ.

رُبَّمَا آخَر مَا سَمِعَهُ فَارِسُ مِنْ جُدَّةَ هُوَ طَلَبُهُ اَلسَّمَاحُ وَالصَّفْحُ مِنْ اَلْجَمِيعِ لَمْ يَكُنْ يَعْتَقِدُ أَنَّ هَذَا اَلْيَوْمِ سَيَأْتِي وَسَيُفَارِقُ مَنْ أَحَبَّ إِلَى اَلْأَبَدِ

لَمْ يَتَمَالَكْ نَفْسَهُ وَكَانَتْ اَلدُّمُوعُ قَدْ مَلَأَتْ خدوده وَصَوَّت بُكَاؤُهُ مَسْمُوعًا أَنَّهُ أَوَّلُ أَلَمِ فِرَاقٍ يَعِيشُهُ فَارِسُ وَقَدْ حَدَّثَهُ جَدُّهُ عَنْهُ سَابِقًا لَقَدْ رَحَلَ وَلَمْ يَكُنْ فَارِسُ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ سَيَتَجَاوَزُ ذَلِكَ بِسُهُولَةٍ فَلَقَدْ عَاشَ مَعَ جَدِّهِ عَدِيدَ اَلسِّنِينَ وَالْأَحْدَاثِ وَشَارَكَهُ بِالْحُبِّ وَالْحَنَانِ وَالِاهْتِمَامِ وَكَانَ دِرْعُهُ فِي ذَلِكَ اَلسِّجْنِ اَلْكَبِيرِ أَلَّا وَهُوَ مَنْزِلُ أَهْلِهِ.

كَانَتْ تِلْكَ هِيَ اَلْمَحَطَّةُ اَلْأُولَى وَالْأَلَمُ اَلْأَوَّلُ اَلَّذِي يَعِيشُهُ فَارِسُ وَكَانَ يُعْتَقَدُ أَنَّ حَيَاتَهُ قَدْ تَوَقَّفَتْ هُنَا وَلَنْ يَمُرَّ بِأَلَمِ أَقْسَى مِنْ ذَلِكَ وَلَكِنَّ عَدِيدَ اَلْأَلَمِ وَأَقْسَاهَا لَمْ يَعِشْهَا بَعْدُ.

وَبَعْدُ مُرُورِ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ أَخَذَتْ صَدْمَةَ اَلْفِرَاقِ تَتَلَاشَى وَتَقِلُّ سَمِعَتْ كَثِيرًا أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَبْدَأُ صَغِيرًا وَيَكْبُرُ إِلَّا اَلْمَوْتُ يَبْدَأُ كَبِيرًا وَيَصْغُرُ.

كُنْتَ أُضْنِيهَا مُجَرَّدٌ حُرُوفٍ وَكَلِمَاتٍ لَا مَعْنَى لَهَا إِلَى أَنَّ رَأَيْتَ ذَلِكَ بِأُمِّ عَيْنِي وَعَايَشْتُهُ بِنَفْسِي لَا أَعْلَمُ هَلْ هُوَ نَوْعٌ مِنْ قِلَّةِ اَلْوَفَاءِ وَالْعَهْدِ أَمْ أَنَّهَا نِعْمَةُ اَلنِّسْيَانِ وَالَّتِي جُبِلَتْ عَلَيْهَا نُفُوسُنَا وَلَوْلَاهَا مَا اِسْتَطَعْنَا تَجَاوُزُ كُلِّ تِلْكَ اَلْمَصَاعِبِ وَالْمِحَنِ وَالْعَقَبَاتِ ؛ أَمْ أَنَّهُ فِعْلاً مِنْ غَابَ عَنْ اَلْعَيْنِ غَابَ عَنْ اَلْقَلْبِ وَالرُّوحِ لَا زِلْتُ أَجْهَلُ ذَلِكَ وَنَتْرُكُ لِلْأَيَّامِ وَالْأَحْدَاثِ تَفْسِيرَهَا .

وَبَعْدُ وَفَاةِ اَلْجِدِّ بِأَيَّامٍ عَادَتْ حَيَاةَ كُلٍّ مِنْ عَايَشَةُ إِلَى طَبِيعَتِهَا وَعَادَ فَارِسُ إِلَى دِرَاسَتِهِ وَحَيَاتِهِ وَلَكِنَّهُ دَائِمًا مَا كَانَ يَزُورُ قَبْرَ جَدِّهِ وَيُحَدِّثُهُ وَيَتَذَكَّرُ أَيَّامَهُ وَذِكْرَيَاتِهِ مَعَهُ وَمَعَ مُرُورِ اَلْأَيَّامِ لَمْ يَعُدْ يَتَذَكَّرُ اَلْكَثِيرُ عَنْ جُدَّةَ إِلَّا لِلَحَظَاتِ عَابِرَةٍ أَوْ عِنْدَ ذِكْرِ اِسْمِهِ أَوْ رُؤْيَةِ قَبْرِهِ وَكَانَ ذَلِكَ اَلْفِرَاقِ اَلْأَوَّلِ اَلَّذِي حَدَّثَهُ جَدُّهُ عَنْهُ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَعِشْ بَعْدُ أَنْوَاعَ اَلْفِرَاقِ اَلْأُخْرَى اَلَّتِي رُبَّمَا لَنْ يَسْتَطِيعَ فَارِسُ نَسِينَاهَا مَهْمَا طَالَ بِهِ اَلزَّمَانُ .

وَمَضَتْ اَلْأَيَّامُ وَكَانَ عَلَى فَارِسِ مُغَادَرَةَ مَدْرَسَتِهِ اَلْقَدِيمَةِ لِعَدِيدِ اَلْأَسْبَابِ وَالِالْتِحَاقِ بِمَدْرَسَةٍ جَدِيدَةٍ يَتَوَاجَدُ فِيهَا أَصْدِقَاؤُهُ اَلْقُدَامَى وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بِنَفْسِ اَلصَّفِّ وَالِاخْتِصَاصِ وَعِنْدَ اِجْتِمَاعِهِ بَاصَدَاقَهْ اَلْقُدَامَى أَحْمَدْ وَكَمَيِّتٍ رَأَى تَبَدُّلُ حَالِ كَمَيِّتٍ كَثِيرٍ

فَكَمِّيَّت قَبْلِ سَنَتَيْنِ لَيْسَ كَمَا هُوَ اَلْيَوْمَ لَقَدْ أَصْبَحَ شَخْصًا آخَرِ وَتَبَدَّلَتْ كُلَّ طِبَاعِهِ وَلَمْ يَعُدْ ذَلِكَ اَلشَّابِّ اَلطَّائِشِ اَلْمَرِحِ اَلَّذِي يَضْحَكُ أَصْدِقَاؤُهُ بِكُلِّ كَلِمَةٍ يَقُولُهَا أَوْ بِكُلِّ فِعْلٍ بِتَصَرُّفِهِ

أَصْبَحَ أَكْثَرَ جِدِّيَّةً فِي اَلتَّعَامُلِ مُلْتَزِمًا أَخْلَاقِيًّا وَدِينِيًّا يَذْهَبُ إِلَى اَلصَّلَاةِ فِي اَلْمَسْجِدِ بِكُلِّ أَوْقَاتِهَا وَيَهْتَمُّ بِدِرَاسَتِهِ أَكْثَرَ مِنْ قَبْلُ يَحْتَرِمُ اَلْجَمِيعُ وَقَلِيل اَلْكَلَامِ؛ قَلِيلِ اَلضَّحِكِ لَقَدْ تَغَيَّرَا كَثِيرًا لَمْ يَكُنْ فَارِسًا يَعْرِفُ سَبَبَ كُلِّ ذَلِكَ فَهُوَ مُخْتَلِفٌ عَنْ أَبْنَاءِ جِيلِهِ وَأَصْدِقَائِهِ.

لَقَدْ كَانَ فَارِسُ يَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ ذَلِكَ اَلتَّغَيُّرِ هُوَ جَيِّدٌ وَصَحِيحٌ وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ اَلتَّغَيُّرِ هُوَ تَغَيُّرُ اَلْمَوْتِ وَالْوَدَاعِ.

وَفِي أَحَدِ اَلْأَيَّامِ أَثْنَاءَ مُغَادَرَتِهِمْ اَلْمَدْرَسَةِ وَقْفَ فَارِسِ بِجَانِبِ بَيْتِ كَمَيِّتٍ مُودِعٍ لَهُ وَبُعْدِ مَسِيرَةِ لِعِدَّةِ خُطُوَاتٍ اِلْتَفَتَ إِلَى أَصْدِقَائِهِ وَرَأَى فَارِسُ فِي عَيْنَيْهِ تِلْكَ اَلنَّظْرَةِ اَلَّتِي لَمْ يَفْهَمْ مَعْنَاهَا وَكَأَنَّهَا نَظْرَةُ اَلْوَدَاعِ وَفِي اَلْيَوْمِ اَلتَّالِي لَمُّ يُرَا فَارِس كَمَيِّتٍ فِي اَلْمَدْرَسَةِ وَلَمْ يُرَافِقْهُمْ مِنْ اَلْمَنْزِلِ أَثْنَاءَ اَلِانْتِقَال إِلَى اَلْمَدْرَسَةِ أَوْ اَلْعَوْدَةِ إِلَى اَلْمَنْزِلِ لِيَعْلَمَ بَعْد مُدَّةٍ قَصِيرَةٍ بِوَفَاةِ كَمَيِّتِ بِحَادِثِ سَيْرٍ فِي اَللَّيْلَةِ اَلْمَاضِيَةِ

وَعِنْدَ سَمَاعِ اَلْخَبَرِ بِمُكَبِّرَاتِ اَلصَّوْتِ فِي اَلْمَسَاجِدِ وَذَكَرَ اِسْمُهُ أَخْذَ فَارِس بِالْبُكَاءِ وَتَذَكَّرَ كُلُّ اَلْأَيَّامِ وَاللَّحَظَاتِ اَلْجَمِيلَةِ اَلَّتِي جَمَعَتْهُ بَكْمِيتْ وَتَذَكَّرَ اَلْأَيَّامَ اَلْأَخِيرَةَ اَلَّتِي كَتَبَ لَهُ أَنْ يَعُودَ لِلِاجْتِمَاعِ بِهِ وَيُوَدِّعُهُ بِحَالٍ غَيْرِ حَالِ اَلْوَدَاعِ عِنْدَمَا اِنْتَقَلَ إِلَى مَدْرَسَةٍ أُخْرَى.

هُنَاكَ اَلْعَدِيدُ مِنْ اَلْأَسْئِلَةِ اَلَّتِي أَخَذَتْ تَدُورُ فِي عَقْلِ فَارِسِ لِمَاذَا تَغَيَّرَ كَمَيِّتِ كَثِيرًا فِي أَيَّامِهِ اَلْأَخِيرَةِ وَأَصْبَحَ شَخْصًا آخَر غَيْرَ اَلَّذِي عَرَفَهُ قَبْلَ سَنَتَيْنِ؟

هَلْ هُوَ اَلْإِحْسَاسُ بِقُرْبِ اَلْمَوْتِ وَمُفَارَقَةِ اَلْحَيَاةِ؟

أَمْ أَنَّ اَللَّهَ قَدْ أُحِبّهُ وَأَرَادَ أَنْ يَلْقَاهُ بِأَفْضَل صُورَةٍ وَحَالاً؟

دَائِمًا مَا كَانَ يَرَى فَارِسَ ذَلِكَ اَلنُّور فِي وَجْهِ كَمَيِّتٍ فِي أَوَاخِرِ حَيَاتِهِ وَقَدْ كَانَ يَجْهَلُ سَبَبُهَا وَلَكِنَّهُ عِنْدَمَا سَمِعَ بِخَبَرِ وَفَاتِهِ أَدْرَكَ مَعْنَى اَلْمَقُولَةِ اَلَّتِي تَقُولُ لَا تُهْدِي مِنْ أَحْبَبْتُ أَنَّ اَللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ.

وَذَهَبَ فَارِسُ مَعَ وَالِدِهِ وَعَائِلَتِهِ لِوَدَاعِ كَمَيِّتٍ اَلْوَدَاعُ اَلْأَخِيرُ وَاَلَّذِي لَنْ يَكُونَ بُعْدُهُ لِقَاءَ فِي هَذِهِ اَلدُّنْيَا اَلْفَانِيَةِ وَقَدْ كَتَبَ لَهُ أَنْ يَرَى وَجْهُهُ لِلْمَرَّةِ اَلْأَخِيرَ وَيَرَى وَالِدَتَهُ اَلَّتِي طَالَمَا حَدَّثَنَا عَنْهَا وَعَنْ قَسَاوَةِ وَالِدِهِ مَعَهَا.

لَقَدْ بَدأَ كُلُّ ذَلِكَ اَلْحُزْنِ فِي وَجْهِهَا أَنَّهَا مُفَارَقَةٌ أَغْلَى مَا تَمْلِكُ وَلَكِنِّي رَأَيْتُ جَبلاً وَاقِفًا يُخَبَّأُ كُلُّ ذَلِكَ اَلْأَلَمِ وَيحْتَسِبُ أَمْرُهُ إِلَى اَللَّهِ وَقَدْ طَلَبَتْ لِقَاءَ فَارِسِ وَأَصْدِقَائِهِ بَعْدَ أَنْ عَلِمَتْ أَنَّهُمْ أَصْدِقَاؤُهُ اَلْمُقَرَّبُونَ وَعِنْدَ لِقَائِهِمْ لَمْ تَتَمَالَكْ نَفْسَهَا لِتَنْهَالَ دُمُوعُهَا مِنْ عَيْنَيْهَا وَتَمْلَأُ وَجْنَتَيْهَا وَقَدْ شَارَكَهَا فَارِسً بِالْبُكَاءِ بِحَسْرَةٍ وَأَلَمٍ

لَقَدْ كَانَ لِفِرَاقِ كَمَيِّتٍ أَثَرٌ كَبِيرٌ فِي نَفْسِ فَارِسِ وَلَكِنَّهَا لَمْ تُكِنْ كَصَدْمَةِ فِرَاقِ جُدَّةَ وَالَّتِي كَانَتْ اَلْأُولَى فِي حَيَاتِهِ وَعَلَى رَغْمِ مِنْ مَحَبَّةِ فَارِسِ لَكْمِيتْ إِلَّا أَنَّهُ عَادَ بِشَكْلِ أَسْرَعَ لِلْحَيَاةِ وَطَوَيْت صَفْحَةً صَدِيقَةً بِوَقْتِ أَقْصَرَ مِمَّا سَبَقَهَا وَهُنَا أَدْرَكَتْ مَعْنَى فِقْدَانِ قِيمَةِ اَلْمَوْتِ وَالرَّاحِلِينَ عَنَّا خِلَالَ اَلْفَتْرَةِ اَلْمَاضِيَةِ فَقَدْ أَصْبَحَ نِسْيَانُهُمْ وَتَجَاوُزُ تِلْكَ اَلْمِحَنِ أَقَلَّ بِكَثِيرِ مِنْ اَلسَّابِقِ رُبَّمَا بِسَبَبِ كَثْرَةِ اَلْمَوْتِ وَفِرَاقِ اَلْكَثِيرِ خِلَالَ اَلسَّنَوَاتِ اَلْمَاضِيَةِ .

لَمْ تَعُدْ كَمَا فِي اَلسَّابِقِ فَقَدْ كَانَ لِلْمَوْتِ هَيْبَةً وَرَهِبَهُ وَحُزْن لَا تُوصَفُ عِنْدَ جَمِيعِ مِنْ سَمِعَ بِهَا ؛ يَشْعُرُونَ بِهَا وَتَتَشَارَكُ اَلْأَحْزَانُ وَيُغْلِقُونَ بَابَ اَلْأَفْرَاحِ اِحْتِرَامًا لَقَرِيبٍ وَجَارٍ وَصَدِيقٍ وَبَعِيدٍ خَبَّرُوهُ أَمَّا اَلْيَوْمَ فَإِنَّكَ تَرَى فِي أَحَدِ اَلْبُيُوتِ عَزَاءً وَفِي نَفْسِ اَلْحَيِّ فَرَحَ وَسُرُورْ لَا أَدْرِي هَلْ هَكَذَا هِيَ اَلْحَيَاةُ وَالْأَقْدَارُ أَمْ أَنَّ اَلنُّفُوسَ وَالْقِيَمَ وَالْعَادَاتِ وَالتَّقَالِيدَ قَدْ تَبَدَّلَتْ أُمُّ أَنَّ سِنِينَ اَلْحَرْبِ اَلطَّوِيلَةِ وَكَثُرَ اَلْمَوْتُ وَالْقَتْلُ أَفْقَدَتْ ذَلِكَ اَلْمُصَابِ أَهَمِّيَّتُهُ وَرَهْبَتُهُ فِي اَلنُّفُوسِ أَمْ أَنَّنَا اِعْتَدْنَا عَلَى صَدْمَةِ اَلْمَوْتِ وَأَصْبَحَ هَمُّنَا صِنَاعَةَ اَلْفَرَحِ وَتَجَاوُزِ كُلِّ تِلْكَ اَلْأَحْزَانِ اَلَّتِي عِشْنَاهَا فِي اَلسِّنِينَ اَلْمَاضِيَةِ

وَبِالْعَوْدَةِ إِلَى حَدِيثِنَا عَادَ فَارِسُ إِلَى حَيَاتِهِ اَلطَّبِيعِيَّةِ بِوَقْتِ أَقْصَرَ وَتَجَاوُزِ مَوْتِ صَدِيقَةٍ وَتَرَسَّخَتْ لَدَيْهِ اَلْقَنَاعَةُ بِأَنَّ اَلْحَيَاةَ مَاضِيَةٌ وَانْ اَلْأَقْدَارَ لَا مَفَرَّ مِنْهَا وَيَكْفِي أَنْ تَقُومَ بِمَا عَلَيْكَ لِتُؤَدِّيَ تِلْكَ اَلرِّسَالَةِ اَلَّتِي خَلَقَتْ مِنْ أَجْلِهَا وَانْ اَلْحَيَاةِ لَنْ تَقْفُ عِنْدَ أَحَدٍ بَلْ سَتَسْتَمِرُّ وَتَمْضِي إِلَى أَنْ يَشَاءَ اَللَّهُ

وَقَدْ عَادَ فَارِسُ إِلَى دِرَاسَتِهِ وَإِلَى أَصْدِقَائِهِ وَلَكِنْ كَانَ لَا بُدَّ مِنْ جَدِيدٍ وَتَجْدِيدٍ فِي حَيَاتِهِ فَقَدْ أَصْبَحَ أَكْثَرَ شُعُورًا بِالْمَسْؤُولِيَّةِ وَالْوَقْتِ وَأَكْثَرُ تَمَسُّكًا بِالْعَائِلَةِ وَهُمُومِهَا وَالْتَحَقَ فَارِسُ بِعَمَلٍ جَدِيدٍ بِالْإِضَافَةِ إِلَى اِلْتِزَامِهِ بِمَدْرَسَتِهِ وَدِرَاسَتِهِ وَأَخَذَتْ دَائِرَةُ عَلَاقَاتِهِ اَلِاجْتِمَاعِيَّةِ بِالتَّوَسُّعِ وَأَصْبَحَ أَكْثَرُ عُرْضَةً لِعَدِيدِ اَلْمَوَاقِفِ وَالْأَحْدَاثِ فَقَدْ خَرَجَ مِنْ نِطَاقِ اَلْمَدْرَسَةِ وَالْعَائِلَةِ إِلَى نِطَاقِ اَلْعَمَلِ وَالشُّعُورِ بِالْمَسْؤُولِيَّةِ وَمُحَاوَلَةِ مُسَاعَدَةِ اَلْأَبِ وَتَغْطِيَةِ نَفَقَاتِهِ اَلدِّرَاسِيَّةِ وَلِأَنَّ حَيَاةَ اَلْعَمَلِ أَكْثَرَ تَعْقِيدًا مِنْ اَلْمَرَاحِلِ اَلَّتِي سَبَقَتْهَا فَقَدَ أَخْذِ فَارِسِ بِاكْتِسَابِ اَلْمَزِيدِ مِنْ اَلْخِبْرَاتِ وَالْقُدْرَةِ عَلَّى حَلُّ اَلْمَشَاكِلِ وَتَجَاوُزِهَا

وَأَصْبَحَتْ نَظْرَتُهُ لِلْحَيَاةِ أَكْثَرَ شُمُولِيَّةَ فَقَدْ أَصْبَحَ يَتَصَوَّرُ ذَلِكَ اَلْغَدِ اَلْمَشْرِقِ وَيُخَطِّطُ لِلنَّجَاحِ فِي دِرَاسَتِهِ بَعْدَ مُعَانَاتِهِ فِي اَلْعَمَلِ وَتَعَرُّضِهِ لِعَدِيدِ اَلْمَوَاقِفِ وَالْمُشْكِلَاتِ

وَلَكِنْ اِكْتَسَبَ مَعْنَى اَلصَّبْرِ وَالتَّحَمُّلِ وَحِسِّ اَلْمَسْؤُولِيَّةِ مِمَّا جَعَلَهُ يَجْتَهِدُ فِي دِرَاسَتِهِ وَيَتَفَوَّقُ دِرَاسِيًّا بَعْد اِنْتِهَاءِ اَلْمَرْحَلَةِ اَلثَّانَوِيَّةِ وَحُصُولِهِ عَلَى اَلْمَرْتَبَةِ اَلْأُولَى فِي مَدْرَسَتِهِ وَبَعْدَ نَجَاحِهِ وَتَفَوُّقِهِ دِرَاسِيًّا أَصْبَحَ أَكْثَرَ حُرِّيَّةً وَأَخْذ بِالتَّجْهِيزِ لِلْمَرْحَلَةِ اَلْجَامِعِيَّةِ وَالَّتِي هِيَ اِنْتِقَالُ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ وَمِنْ مَرْحَلَةٍ إِلَى أُخْرَى

فَقَدْ أَصْبَحَ أَكْثَرَ حِرْصًا عَلَى دِرَاسَتِهِ وَنَجَاحِهِ بَعْدَ تَذَوُّقِهِ طَعَم اَلْمَجْدِ وَالنَّجَاحِ وَالتَّفَوُّق وَحُصُولِهِ عَلَى ذَلِكَ اَلتَّقْدِيرِ اَلِاجْتِمَاعِيِّ مِنْ كُلِّ أَفْرَادِ عَائِلَتِهِ وَأَقْرِبَائِهِ وَمِنْ يَعْرِفُهُ

وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ بِصُعُوبَاتِ اَلْحَيَاةِ وَبِكُلِّ تِلْكَ اَلْمَصَائِبِ وَالْمَشَاكِلِ وَالنَّكَبَاتِ اَلَّتِي تَنْتَظِرُهُ

وَمِنْ هُنَا تَبْدَأُ اَلْأَحْدَاثُ وَتَتَوَالَى وَتَكْبُرُ يَوْم بَعْدَ يَوْمٍ وَتُعْظِمُ وَتَتَحَوَّلُ حَيَاتُهُ إِلَى جَحِيمِ وَحُرُوفَهُ إِلَى رَمَادِ وَتَزِيدُ زَلَّاتِهِ زَلَّةَ وَخَطَايَاهُ خَطَايَا وَتَبْتَلِعُهُ اَلْأَحْدَاثُ وَتَجُرُّهُ اَلْأَقْلَامُ إِلَى طَرِيقٍ لَا عَوْدَةً مِنْهُ وَلَا مَنَاص.

أَمْضَى فَارِسُ عَامَيْنِ فِي مَرْحَلَةِ اَلتَّعْلِيمِ اَلْجَامِعِيِّ بِنَشَاطٍ وَجَدَ فِي اَلدِّرَاسَةِ وَكَدٍّ وَجَدَ فِي اَلْعَمَلِ لَمْ يَدَّخِرْ جُهْدًا وَلَمْ يَنِمْ قَطُّ عَنْ عَمَلٍ أَوْ وَاجِبٍ كَانَ بَشُوشُ اَلْوَجْهِ طَيِّبٍ اَلنَّفْسِ أُحِبُّهُ مِنْ عَرَفَهُ وَتَمَسَّكَ بِهِ مِنْ عَاشِرَةِ

وَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَطْرُقَ بَابُهُ ذَلِكَ اَلْعِشْقِ وَتَرْمِيهُ تِلْكَ اَلْفَتَاةِ بِعُيُونِهَا كَسِهَامٍ تُصِيب اَلْقَلْبَ وَلَا تُخْطِئُ

أَحَبَّهَا عِنْدَمَا رَآهَا وَسُمِعَ قَوْلُهَا وَكَلَامُهَا وَحَدَّثَهَا بِكُلِّ اِتِّزَانِ وَرزَانَةِ وَالْقَلْبِ يُخْفِقُ بِاسْمِهَا بِلَا خَوْفٍ وَلَا مَهَانَةً وَرُبَّمَا هِيَ قَدْ أَحَبَّتْهُ فَأَبْدَتْ بِهِ شَوْقُهَا وَغرَامِهَا وَتَرَكَتْ عُيُونَهَا لِتَنْسِجَ آمَالُهَا كَانَتْ ذَا مَبْسِمِ بَهِيّ وَعَيْنَيْنِ كَبُسْتَان أَخْضَرَ أُطْرِبَهُ اَلشِّتَاءُ وَتَفَتَّحَتْ أَزْهَارَهُ بِرَبِيعْ اَلْحَيَاةَ وَأَيَّامَهَا كَانَ دَائِمُ اَلنَّظَرِ بِعَيْنَيْهَا مَفْتُونٍ بِسِحْرِهَا وَجَمَالِهَا وَكُلَّمَا كَانَ يُلَاقِيهَا يُحَادِثُهَا وَيُبْدِي بِهَا ذَلِكَ اَلْإِعْجَابِ وَالْعِشْقِ وَالْهُيَامِ.

دائِم مَا كَانَ فَارِسُ يُحَاوِلُ مُحَادَثَتَهَا وَالْبَوْحَ بِمَا يَجُولُ فِي نَفْسِهِ فَقَدْ اِعْتَادَ عَلَى اَلْحَدِيثِ مَعَهَا وَمُسَامَرَتَهَا وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَسْتَطِيعُ أَخْبَارَهَا بِحُبِّهِ وَعِشْقِهِ لَهَا.

إِلَّا أَنَّ جَاءَ ذَاكَ اَلْيَوْمِ وَحَدَّثَهَا بِمَا يَجُولُ بِخَاطِرِهِ مِنْ حُبٍّ وَعِشْقَ وَهُيَامٍ وَأَنْ بَابَ قَلْبِهِ لَمْ يَفْتَحْ لِسِوَاهَا وَعِنْدَمَا أَبْدَتْ بِهِ إِعْجَابُهَا تَوَسَّمَ خَيْرًا وَلَمْ يُخْفِ تِلْكَ اَلسَّعَادَةِ

وَمَضَتْ اَلْأَيَّامُ عَلَى ذَلِكَ اَلْحُبِّ إِلَى أَنَّ تَحَدَّثَتْ شِفَاهُ فَارِسِ لِأَهْلِهِ وَنَطَقَتْ بِحُرُوفِ اِسْمِهَا وَلَكِنْ لَمْ تَدُمْ اَلسَّعَادَةُ حَيْثُ جَاءَ اَلْجَوَابُ وَالرَّدُّ بِالصَّدِّ وَرَفْضِهَا وَالِامْتِنَاعِ عَنْ ذِكْرِ أَهْلِهَا وَقُرَاهَا وَانْ لَا يُذْكَرُ اِسْمُهَا وَيَنْسَى عِشْقُهَا وَغَرَامَهَا.

هُنَا صَمَتَتْ شِفَاهُ فَارِسِ وَلَمْ تُغَيِّرْ كُلُّ تِلْكَ اَلسِّنِينَ عِنَادِ أَهْلِهِ وَتَسَلُّطِهِمْ وَلَمْ يُجد طُولُ اَلْحَدِيثِ وَتَكْرَارِهِ أَيْ نَتَائِج وَلَا قَبُول

وَهُنَا أَخْذُ فَارِسِ اَلْقَرَارِ بِالتَّمَرُّدِ عَلَى ذَلِكَ اَلتَّسَلُّطِ وَتَرْكِ اَلدِّيَارِ وَغَادَرَ اَلْبَيْتُ وَالْأَحْزَانُ تَمْلَأُ قَلْبَهُ وَالْيَأْسُ قَدْ أَخَذَ مَأْخَذُهُ مِنْهُ وَبُعْدِ عَدِيدِ اَلْمُحَاوَلَاتِ وَالسُّؤَالِ مِنْ قَبْلُ اَلْأَهْلِ عَادَ بِحُكْمِ اَلظُّرُوفِ مُرْغَمٌ إِلَى بَيْتِهِ.

وَعِنْدَ أَوَّلِ لِقَاءٍ بِمَنْ أَحَبَّ حَدَّثَهَا حَدِيثُ اَلْعَاجِزِ اَلَّذِي لَا يَمْلِكُ اَلْقَرَارُ وَلَا حَتَّى أَسْبَابِ اَلِاخْتِيَارِ وَتَرْكِ بَابِ اَلْعِشْقِ مَفْتُوحًا وَلَمْ يُغْلِقْ بَابُ اَلِانْتِظَارِ

وَلَمْ تَتَوَقَّفْ كُلُّ تِلْكَ اَلْمَصَاعِبِ وَالْمَتَاعِبِ عِنْدَ هَذَا اَلْحَدِّ بَلْ تَعَرَّضَ لِخِلَافِ وَلِعِرَاك وَمُشَاجَرَة شَدِيدَةً مَعَ اقَارُبِهِ كَادَتْ أَنْ تُودِيَ بِحَيَاةِ وَالِدِهِ وَتَعَمَّقَتْ اَلْخِلَافَاتُ وَكَبُرَتْ وَقَرَّرَ وَالِدُ فَارِسِ هَجْرَ اَلدِّيَارِ وَتَرَكَهَا وَحَاوَلَ بَعْضُ اَلْوُسَطَاءِ تَهْدِئَةَ اَلْأُمُورِ وَإِغْلَاقِ بَابِ اَلْفِتْنَةِ وَالْخِلَافِ وَلَكِنَّ دُونُ جَدْوَى

وَكَبُرَ ذَلِكَ اَلشَّرْخِ بَيْنَ أَفْرَادِ اَلْعَائِلَةِ اَلْوَاحِدَةِ وَطَالَ لِسِنِينَ عَدِيدَةٍ تَخَلَّلَهَا عَدِيدُ اَلْأَحْدَاثِ وَالْحُرُوبِ وَالنَّوَائِبِ

لَمْ تَكُنْ تَسِيرُ تِلْكَ اَلْأَيَّامِ بِشَكْلِهَا اَلطَّبِيعِيِّ وَحَتَّى تِلْكَ اَلنُّفُوسِ تَغَيَّرَتْ وَأَصْبَحَتْ تَمِيلُ إِلَى اَلْبَغْضَاءِ وَالْكُرْهِ وَمَحَبَّةِ اَلنَّفْسِ كَانَ فَارِسُ يُحِسُّ بِكُلِّ تِلْكَ اَلْأَنْفَاسِ وَيَشْعُرُ بِكُلِّ تِلْكَ اَلْقُلُوبِ كَانَ دَائِمًا يَسْمَعُ بِمَقُولَةِ اَلدِّمَاءِ لَا يُمْكِنُ أَنْ تُصْبِحَ مَاءً ؛ دَلَالَةٍ عَلَى ذَلِكَ اَلرَّابِطِ اَلْقَوِيِّ بَيْنَ أَفْرَادِ اَلْعَائِلَةِ اَلْوَاحِدَةِ وَالْأُسْرَةِ اَلْوَاحِدَةِ وَلَكِنَّهُ أَدْرَكَ أَنَّ تِلْكَ اَلْمَقُولَةِ هِيَ مُجَرَّدُ أَحَادِيث يَتُسَايرُ بِهَا اَلنَّاسُ وَيَمُنُّونَ بِهَا أَنْفُسهَمْ فَمُنْذُ خَلَقَ اَلْإِنْسَانَ سَفْكَ هَذَا اَلرَّابِطِ وَخَلَقَتْ اَلْجَرِيمَةُ وَلَمْ تَخْلُقْ كُلُّ تِلْكَ اَلنُّفُوسِ وَتُجْبَل كُلُّ تِلْكَ اَلدِّمَاءِ عَلَى اَلطَّيِّبَةِ وَالْمَحَبَّةِ

وَفِي رَبِيعْ ذَلِكَ اَلْعَامِ حَيْثُ اِخْضَرَّتْ اَلْمُرُوجُ وَتَكَاثَرَتْ تِلْكَ اَلْوُرُودِ بِأَلْوَانِهَا اَلْمُخْتَلِفَةِ وَرَوَائِحِهَا اَلْعَبِقَةِ وَأَخَذَتْ أَشْجَارُ اَلتِّينِ وَالزَّيْتُونِ تُزْهِرُ لِتُغْدِقَ أَصْحَابِهَا مِنْ خَيْرِهَا وَتُعْطِي مِنْ أَعْطَاهَا وَسَقَاهَا مِنْ عِرْقِ جَبِينِهِ وَمِنْ أَنْفَاسِهِ اِسْتَفَاقَ أَهْلَ ذَلِكَ اَلْحَيِّ عَلَى رَائِحَةِ اَلدِّمَاءِ وَعَلَى نَبَأِ مَقْتَلِ زَوْجٍ عَلَى يَدِهِ زَوْجَتَهُ لَمْ تَكُنْ تِلْكَ اَلْحَادِثَةِ عَابِرَةً وَلَنْ تُكَوِّنَ لِأَنَّهَا سَتُشْعِلُ شَرَارَةَ اَلْفِتْنَةِ وَتَفْتَحُ بَاب لِلدِّمَاءِ لَنْ تَنْتَهِيَ بَيْنَ عَائِلَتَيْنِ تَرْبُطُهُمْ تِلْكَ اَلدِّمَاءِ وَالْعَدِيدُ مِنْ رَوَابِطِ اَلْقَرَابَةِ وَالنَّسَبِ وَلَكِنَّهَا قَدْ سَفَكَتْ وَتَلَطَّخَتْ بِشُرُورٍ وَحِقْدٍ دَفِينٍ غَابَتْ مَعَالِمَهُ وَتَفَاصِيلَهُ .

رُبَّمَا كَانَتْ تِلْكَ اَلْحَادِثَةِ نَبَأ مُفَاجِئًا لَمْ يُعْتَدْ عَلَيْهِ اَلنَّاسُ وَلَكِنْ قَدْ تَكُونُ نَتِيجَةِ طَبِيعَةٍ لِشُرُورٍ مَضَتْ وَأَحْدَاث جَرَتْ.

فَالرَّجُلُ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَصْحَابِ اَلسُّمْعَةِ اَلطِّيِّبَةِ وَالْأَخْلَاقِ اَلْحَسَنَةِ هُوَ وَأَبْنَاءَهُ بَلْ كَانَ مَنْبُوذًا هُوَ وَعَائِلَتُهُ بَعِيدًا عَنْ تِلْكَ اَلرَّوَابِطِ اَلِاجْتِمَاعِيَّةِ مُجَاهِرًا لِعَدَائِهِ لِكُلِّ اَلنَّاس وَحَتَّى أَبْنَائِهِ لَمْ تَسْلَمْ مِنْ شُرُورِهِ فَإِحْدَى بَنَاتِهِ قَدْ تَسَبَّبَ لَهَا بِضَرَرٍ كَبِيرٍ بِحَادِثَةٍ كَانَتْ هِيَ اَلْأَغْرَبُ مِمَّا سَمِعَتْ رَجُل يَرْبُطُ اِبْنَتَهُ فِي أَحَدِ اَلْكُهُوفِ اَلَّتِي لَا يَرْتَادُهَا إِلَّا اَلْوُحُوشَ لَيْلَةً كَامِلَةً عِقَابًا لَهَا عَلَى أَحَدِ أَخْطَائِهَا وَالَّذِي لَمْ يَكُنْ بِذَلِكَ اَلذَّنْبِ اَلْكَبِيرِ مِمَّا تَسَبَّبَ لَهَا بِمَرَض جِسْمِي وَنَفْسِيٌّ شَدِيدٌ عَايَشَهَا طَوَالَ حَيَاتِهَا .

وَلَكِنَّ اَلْعَجَبَ اَلْعُجَابَ أَنَّ تِلْكَ اَلزَّوْجَةِ لَمْ تَكُنْ عَلَى خِلَافٍ مَعَ ذَلِكَ اَلزَّوْجِ وَلَمْ يَعْرِفْ عَنْهُمْ سِوَى اَلْمَحَبَّةِ وَالْإِخْلَاصِ وَحَتَّى أَنَّ تِلْكَ اَلزَّوْجَةِ قَدْ جَاهَرَتْ بِعَدَائِهَا لِإِخْوَانِهَا وَأَهْلُهَا كَرَامَةً لِعُيُونِ زَوْجِهَا وَهُوَ أَيْضًا مَنْ قَامَ بِتَعْلِيمِهَا عَلَى اِسْتِخْدَامِ تِلْكَ اَلْبُنْدُقِيَّةِ اَلَّتِي قَدْ قَتَلَتْهُ بِهَا.

وَلَكِنَّ اَلْيَوْمَ تِلْكَ اَلْمَرْأَةِ قَدْ وَضَعَتْ نَفْسُهَا وَعَائِلَتُهَا فِي مُوَاجَهَةِ عَائِلَةِ زَوْجِهَا وَحَتَّى أَبْنَائِهَا وَالَّذِينَ أَخَذُوا يَطْلُبُونَ بِالثَّأْرِ وَالْقِصَاصِ وَيَحْشُدُونَ شَبَابَهُمْ وَرِجَالَهُمْ لِذَلِكَ.

دَائِمًا مَا كُنْتُ أَسْمَعُ تِلْكَ اَلْمَقُولَةِ وَالَّتِي تَقُولُ اَلْمَرْأَةُ خَيْرَهَا لِزَوْجِهَا وَشَرِّهَا لِأَهْلِهَا وَلَكِنِّي لَمْ أَكُنْ أُؤْمِنُ بِتِلْكَ اَلْمَقُولَةِ إِلَّا أَنَّ عَايَشَتْ تِلْكَ اَلْحَادِثَةِ وَرَأَيْتَهَا بِأُمِّ عَيْنِي

وَهُنَا كَانَ لَا بُدَّ مِنْ تَدَخُّلِ بَعْضِ اَلْعُقَلَاءِ وَكِبَارِ اَلسِّنِّ وَبَعْضِ اَلْعَائِلَاتِ اَلْأُخْرَى لِتَهْدِئَةِ اَلنُّفُوسِ وَوَأْدِ اَلْفِتْنَةِ وَإِيقَافِ شَلَّالِ دَمِ لَنْ يَنْتَهِيَ إِذَا مَا اِشْتَعَلَتْ تِلْكَ اَلْحَرْبِ بَيْنَ اَلْعَائِلَتَيْنِ

وَقَدْ اِنْتَهَتْ تِلْكَ اَلْحَادِثَةِ بَعْد فَتْرَةٍ قَصِيرَةٍ بِإِصَابَةِ أَحَدِ شَبَابِ عَائِلَةِ اَلزَّوْجَةِ وَتَدَخُّلِ بَعْضِ اَلْعُقَلَاءِ وَالْوُجَهَاءِ وَعَقَدَ صُلْحُ بَيْنَ اَلْعَائِلَتَيْنِ وَاَلَّتِي هِيَ بِالْأَصْلِ أَبْنَاءِ جَدٍّ وَاحِدٍ وَتَمَّ دَفْعُ دِيَةِ اَلزَّوْجِ وَتَجَنُّبِ فِتْنَةٍ أَكْبَرَ وَنَزِيفِ دَمٍ أَكْثَرَ

. . .

وَتَمْضِي اَلْأَيَّامُ مِنْ حَيَاةِ فَارِسِ بَيْنَ اَلْعَمَلِ وَالْعِلْمِ وَكُلِّ يَوْمٍ يَكْتَسِبُ عَدِيدُ اَلْخِبْرَاتِ وَيَمُرُّ بِعَدِيدِ اَلْحَوَادِثِ وَعَدِيدِ اَلشَّخْصِيَّاتِ وَلَكِنَّهُ لَا زَالَ يَشْعُرُ بِذَلِكَ اَلْكَمِّ اَلْكَبِيرِ مِنْ اَلْأَسَى فِي قُلُوبِ اَلنَّاسِ وَيَرَى ذَلِكَ اَلْغَضَبِ وَالْحُزْنِ اَلْكَبِيرِ فِي عُيُونِهِمْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ اَلْمُجْتَمَعِ وَتِلْكَ اَلْفِئَةُ مِنْ اَلنَّاسِ خَارِجَ تِلْكَ اَلْمُجْتَمَعَاتِ اَلْمُجَاوِرَةِ وَاَلَّتِي اِنْتَفَضَتْ غَضَبًا وَبُؤْسًا وَفَقْرًا وَخَوْفًا .

وَكَانَ فَارِسُ يَشْعُرُ وَيَرَى تِلْكَ اَلسَّحَابَةِ وَاَلَّتِي تَقْتَرِبُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ وَاَلَّتِي قَدْ تَحْرُقُ كُلَّ شَيْءٍ وَاَلَّتِي قَدْ تَبَدَّلَ أَجْيَالُ بِأَكْمَلِهَا وَتَزْرَعُ حَدَائِقُ مِنْ اَلْأَمَلِ وَالْأَزْهَارِ وَالْأَشْجَارِ وَتَنْتَفِضُ عَلَى حِكَايَةِ اَلظُّلْمِ وَالظَّالِمِينَ وَتَحْرُقُ حُرُوفٌ وَأَسْمَاءٌ لَمْ تَكُنْ يَوْمًا بِالْحُسْبَانِ.

وَجَاءَ ذَلِكَ اَلْيَوْمِ بِرَبِيعْ ذَلِكَ اَلْعَامِ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ رَبِيعْ كَبَقِيَّةِ اَلْفُصُولِ اَلَّتِي سَبَقَتْهَا وَلَنْ يَكُونَ. كَانَ فَارِسُ فِي عَمَلِهِ مَعَ زُمَلَائِهِ يَتَبَادَلُونَ اَلْحَدِيثُ أَثْنَاءَ اَلْعَمَلِ وَيَتَسَامَرُونَ لَا يَعْلَمُونَ بِأَنَّ ذَلِكَ اَلْيَوْمِ لَنْ يَكُونَ كَبَقِيَّةِ اَلْأَيَّامِ وَسَيَبْقَى فِي أَذْهَانِهِمْ سِنِينَ طَوِيلَةً وَأَجْيَالٌ كَثِيرَةٌ.

بدوا يَشْعُرُونَ بِأَحْدَاثِ غَرِيبَةٍ تَجْرِي مِنْ حَوْلِهِمْ لَمْ يَكُنْ مُخَطَّطًا لَهَا وَلَمْ يَكُنْ فِي اَلْحُسْبَانِ.

شَيْءٌ مَجْهُولٌ يُحَرِّكُ اَلسَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَيُحْرِقُ اَلنُّفُوسَ وَيُحَرِّكُ اَلْأَقْدَار وَكَأَنَّهَا يَوْمُ اَلْقِيَامَةِ أَوْ حَرْبٍ ضَرُوسٍ لَنْ تُبْقِيَ وَلَنْ تَذَرَ

عشَرَاتِ اَلطَّائِرَاتِ تَجُوبُ اَلسَّمَاءُ ذَهَابًا وَإِيَابًا يَرَاهَا اَلْجَمِيعُ كَمَا لَمْ تَرَ مِنْ قَلْبٍ وَلَكِنَّهُمْ يَجْهَلُونَ مَاذَا حَدَثَ وَسَيَحْدُثُ.

هَلْ بَدَأَتْ اَلْحَرْبُ؟

وَبَدَأَتْ التساؤلات تَكْثُرَ وَبَدَأَتْ اَلْهَمَسَاتُ تَسْمَعُ

هَلْ تَمَّ اِتِّخَاذُ اَلْقَرَارِ بِهَدْمِ أَسْوَارِ اَلْعَدُوِّ وَتَحْرِيرِ اَلْمُغْتَصِبِ؟

كُلَّ شَيْءٍ حَدَثَ بِسُرْعَةٍ وَبِرمْشِهِ عَيَّنَ وَبَدَأَتْ اَلْأَخْبَارُ تَتَوَالَى وَالْأَحْدَاث تَتَزَايَدُ لِكُلِّ طَرَفِ حِكَايَةٍ وَرِوَاية وَحَقِيقَةِ يَرَاهَا وَلَا يُرِيدُ أَنْ يَسْمَعَ غَيْرَهَا وَيُحَاوِل إِقْنَاعُ غَيْرِهِ بِهَا

وَلَكِنَّ اَلْحَقِيقَةَ ثَابِتَةٌ لَا تَتَبَدَّلُ وَكَيْفَ لِيَد أَنْ تُخْفِيَ أَنْوَارُ اَلشَّمْسِ اَلسَّاطِعَةِ وَكَيْفَ لِأَطْفَال أَنْ يَكُونُوا دُخَلَاء وَعُمَلَاء وَكَيْفَ لِحَاكِمِهِمْ أَنْ يَسْتَبِيحَ دِمَاءَهُمْ لِمُجَرَّدِ تَرْدِيدِ بَعْضِ اَلْعِبَارَاتِ وَاَلَّتِي سَبَقَهُمْ إِلَيْهَا أَقْوَامٌ وَشُعُوبٌ أُخْرَى.

كُلُّنَا نَعْلَمُ أَنَّ اَلْأَطْفَالَ يُقَلِّدُونَ مَا يَرَوْنَ وَيُحَدِّثُونَ بِمَا يَسْمَعُونَ وَقَدْ يَكْتُبُونَ أَيْضًا عِبَارَاتٍ يَجْهَلُونَ مَعْنَاهَا أَوْ حَتَّى حُرُوفِهَا.

لَمْ تَكُنْ تِلْكَ حَادِثَةٌ عَابِرَةٌ تَمْضِي بِبَعْضِ اَلْكَلِمَاتِ وَالْخِطَابَاتِ اَلْمُزَيَّفَةِ فَعِنْدَمَا يُهَان اَلْكِرَامُ يُصْبِح اَلْمَوْتُ أَحَبَّ إِلَى قُلُوبِهِمْ مِنْ اَلْحَيَاةِ.

هُوَ تَارِيخٌ لَا يَنْسَى وَلَنْ يُزَيِّفَهُ اَلتَّارِيخُ وَالْمُؤَرِّخُونَ مَهْمَا صَنَعَتْ أَيْدِي اَلْحَاقِدِينَ وَالْجَاحِدِينَ.

كَانَ ذَلِكَ اَلْيَوْمِ بِمَثَابَةِ سُطُورٍ كَتَبَتْ بِالدِّمَاءِ وَحَفَرَتْ عَلَى جُدْرَانِ اَلْقُلُوبِ اَلْحَيَّةِ وَاَلَّتِي لَنْ تَمُوتَ وَسَتُخَلِّدُهَا اَلْأَجْيَالُ جِيل بَعْدَ جِيلٍ وَعَامٍ بَعْدَ عَامٍ

دَائِمًا مَا كَانَتْ تِلْكَ اَلْحَنَاجِرِ تَصْمُتُ وَتَخَافُ اَلْحَدِيثَ وَدَائِمًا مَا كَانَتْ تَرْضَى بِمَا اُخْتِيرَ لَهَا وَتَرْضَى بِكُلِّ أَحْكَامِهَا وَسُطُورِهَا وَكَأَنَّهُ قَدْرٌ لَا مَفَرَّ مِنْهُ وَدَائِمًا مَا كُنْتُ أَرَى ذَلِكَ اَلْخَوْفِ فِي عُيُونِ كُلٍّ مِنْ قَابَلَتْهُمْ وَأَسْمَعَهُمْ يُرَدِّدُونَ دَائِمًا مَقُولَةً (اَلْجُدْرَانُ لَهَا أُذُنَيْنِ) بِلَهْجَةٍ عَامِّيَّةٍ مَفْهُومَةٍ لِلْجَمِيعِ

وَلَكِنْ فِي ذَلِكَ اَلْيَوْمِ تَحَطَّمَتْ كُلَّ تِلْكَ اَلْجُدْرَانِ وَسَقَطَتْ تِلْكَ اَلْمَقُولَةِ بِلَا عَوْدَةٍ ؛ سَقَطَتْ مِنْ نُفُوسِ كُلِّ اَلنَّاسِ وَتَحَوَّلَتْ إِلَى مُجَرَّدِ خَيَالٍ وَحِكَايَةٍ مِنْ حِكَايَةِ اَلْمَاضِي وَبَدَأَتْ حِكَايَةٌ جَدِيدَةٌ مِنْ حِكَايَةِ اَلنِّضَالِ وَتَحْطِيمِ أَصْنَامِ اَلظَّالِمِينَ وَلَكِنَّهَا أَيْضًا أَشْعَلَتْ نِيرَانُ اَلظَّالِمِينَ وَغَضَبُهُمْ وَتَحَوَّلَتْ كُلَّ تِلْكَ اَلْقُوَّةِ وَالسِّلَاحِ إِلَى صُدُورِ اَلثَّائِرِينَ وَالْعَاشِقِينَ لِلْمَوْتِ فِي سَبِيلِ اَلْكَرَامَةِ وَالْحُرِّيَّةِ

وَمَضَتْ اَلْأَيَّامُ وَأَخَذَتْ تِلْكَ اَلشُّعْلَةِ تَزِيدُ وَتَمْتَدُّ وَبَدَأَتْ كُلَّ تِلْكَ اَلْأَقْنِعَةِ بِالتَّسَاقُطِ وَبَدَأَتْ كُلَّ تِلْكَ اَلْحَنَاجِرِ تَنْطَلِقُ وَتَهْتِفُ وَلَا تَهَابُ اَلْمَوْتَ وَالَّذِي قَدْ سَرَقَ اَلْكَثِيرَ مِنْهُمْ وَسَالَتْ دِمَاؤُهُمْ لِتَكُونَ مَنَارَةً لِغَيْرِهِمْ لَا تَنْطَفِئُ وَلَا تَمُوتُ

وَأَخَذَتْ اَلْأَيَّامُ تَمْضِي وَتَطْوِي مَعَهَا عَدِيدَ اَلْأَسْمَاءِ لَمْ تَعُدْ تِلْكَ اَلذَّاكِرَةِ تَسْتَطِيعُ إِحْصَاءً مِنْ رَحلُوا وَغيَبْتُهُمْ اَلْأَقْدَارَ وَأَيْدِيَ اَلظَّالِمِينَ وَحَتَّى مِنْ بَقِيَ أَخْذٌ يَقْصِدُ دُوَلاً وَبُلْدَانًا أُخْرَى فَارًّا بِنَفْسِهِ وَتَارِكِ هُمُومِ اَلسِّنِينَ خَلْفَ ظَهْرِهِ

وَرَغْمُ كُلِّ ذَلِكَ لَمْ تَكُنْ سِوَى اَلْبِدَايَةِ فَالْمَأْسَاةُ أَخَذَتْ تَزْدَادُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ وَتَكْبُرُ وَتَتَوَسَّعُ وَأَخَذَتْ تِلْكَ اَلْبَنَادِقِ تَرِدُ بَعْضَ ذَلِكَ اَلظُّلْمِ عَنْ أَهْلِهَا وَتَأْبَى أَنْ تَكُونَ ضَحِيَّةٌ دُونَ ثَمَنٍ أَوْ مُقَابِلٍ لَمْ يُسَلِّمْ أَيُّ بَيْتِ مِنْ تِلْكَ اَلْعَاصِفَةِ فَالْجَمِيعُ اِكْتَوَى بِنِيرَانِهَا

وَمِنْ اِخْتَارَ طَرِيقَهُ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَمْضِيَ وَلَا يَرْفَعُ تِلْكَ اَلرَّايَةِ اَلْبَيْضَاءِ اَلَّتِي تُتْعِبُ اَلنُّفُوسُ أَكْثَرَ مِنْ اَلْمَوْتِ وَمُفَارَقَةِ اَلْأَحْبَابِ كَانَ فَارِسُ لَا يَزَالُ يَتِمُّ دِرَاسَتَهُ وَيَسْعَى لِإِنْهَائِهَا وَلَمْ يُخْفِي يَوْمًا تَأْيِيدَهُ لِلْمَظْلُومِينَ وَحِقْدِهِ لِلظَّالِمِينَ وَلَمْ يَبْتَعِدْ عَنْ أَيِّ نَشَاطِ تَرْفَعُ فِيهِ أَصْوَاتُ اَلْمَظْلُومِينَ وَالْعَالِقِينَ فِي مُسْتَنْقَعِ اَلظُّلْمِ وَالظَّلَامِ

وَقَدْ اِنْتَقَلَ فَارِسُ إِلَى مَنْزِلٍ فِي مَدِينَةٍ أُخْرَى وَأَصْبَحَ لَدَيْهِ صَدِيقٌ مُقَرَّبٌ وَهُوَ صُهَيْبْ مِنْ أَحَدِ جِيرَانِهِ، يَجْتَمِعُونَ يَوْمِيًّا وَيَتَسَامَرُونَ اَلْحَدِيثَ وَيَبُوحُونَ بِأَسْرَارِهِمْ لِبَعْضِهِمْ دُونِ خَوْفٍ أَوْ وَجِلٍ وَكَانَ اَلْجُزْءُ اَلْأَكْبَرُ مِنْ حَدِيثِهِمْ عَنْ تِلْكَ اَلْحَنَاجِرِ وَتِلْكَ اَلرَّايَاتُ اَلَّتِي عَلَتْ وَتَمَرَّدَتْ عَلَى كُلِّ ظَالِمٍ وَكُلِّ حَاقِدٍ.

وَمَضَتْ أَيَّامُ وَلَيَالٍ طَوِيلَةٌ كَانَ لِلْحَقِّ جَوْلَةً وَلِلظُّلْمِ جَوْلَةٌ وَلَكِنَّ اَلْيَقِينَ أَنَّ اَلنِّهَايَةَ لَنْ تَكُونَ إِلَّا لِلْمَظْلُومِينَ وَلِلْحَقِّ عَلَى اَلظَّالِمِينَ

وَفِي أَحَدِ اَلْأَيَّامِ كَانَ فَارِسُ فِي بَيْتِهِ يَسْمَعُ هَدِيلَ اَلطَّائِرَاتِ وَأَصْوَاتِ اَلْمُدَافِعِ اَلَّتِي تَدُكُّ كُلَّ ظِلٍّ وَبَيْتٍ وَتَحْرُقُ بَيَاضَ اَلْحَيَاةِ لِتُبَدِّلَهُ بِسَوَادِهَا وَتَخَضَّبَ كُلُّ شِبْرٍ وَحَبَّةِ تُرَابٍ بِدِمَاءٍ طَاهِرَةٍ زَكِيَّة لَنْ تُنْجِبَ اَلْأَيَّامُ مِثْلَهَا.

لَمْ يَكُنْ فَارِسُ يَعْتَقِدُ يَوْم أَنَّ كُلَّ تِلْكَ اَلْقُوَّةِ قَدْ صَنَعَتْ وَكَبُرَتْ لِأَجَلِ قَتْلِنَا وَالْقَضَاءُ عَلَيْنَا وَإِطْفَاءِ نُورِ اَلْحَيَاةِ وَالْحُرِّيَّةِ فِي عُيُونِنَا.

وَفِي أَحَدِ اَلْأَيَّامِ طُرُقَ بَابِ فَارِسِ أَحَدَ اَلْأَصْدِقَاءِ مِمَّنْ بَانَتْ عَلَيْهِمْ آثَارُ اَلتَّعَبِ وَالْخَوْفِ وَكَأَنَّ أَشْبَاحَ اَلدُّنْيَا كُلِّهَا تُلَاحِقُهُ.

كَانَ هَذَا اَلصَّدِيقِ عُمَرْ وَقَدْ عَرَفَهُ فَارِسُ مُنْذُ اَلْقَدِيمِ فِي حَارَتِهِ وَمَعَ أَبْنَاءِ قَرْيَتِهِ شَابًّا قَوِيًّا أَسْمَر اَلْبَشَرَةِ حَادُّ اَلطِّبَاعِ سَرِيعٌ اَلْغَضَبِ.

فَارِسٌ:

سَمِعَ دَقَّاتِ اَلْبَابِ وَأَثَارَ اَلْخَوْفُ ظَاهِرَةً عَلَيْهَا وَقَدْ خَرَجَ مُسْرِعٌ لِفَتْحِ اَلْبَابِ قَبْلَ غُرُوبِ شَمْسِ ذَلِكَ اَلْيَوْمِ وَإِذْ بِهِ عُمَرْ.

فَارِسٌ:

أَهْلاً يَا عُمَرْ تُفَضِّلُ أَهْلاً وَسَهْلاً.

دَخَلَ عُمَرْ وَهُوَ يَلْتَفِتُ حَوْلَهُ وَكَأَنَّهُ يَخَافُ مِنْ أَعْيُنٍ تَتَرَصَّدُهُ أَوْ مِنْ رَقِيبٍ يُفْشِي سِرَّهُ

جَلَسَ عُمَرْ وَقَدْ بَانَتْ آثَارُ اَلتَّعَبِ عَلَيْهِ وَقَدْ أَحْضَرَ لَهُ فَارِسُ كَأْسُ مَاءٍ وَقَدْ شَرِبَ وَحَمَدْ لِلَّهِ وَوَضْعِ اَلْكَأْسِ عَلَى اَلْأَرْضِ وَسَأَلَهُ فَارِسَ مَا اَلَّذِي تَفْعَلُهُ هُنَا وَمَا اَلَّذِي جَعَلَكَ فِي هَذَا اَلْحَالِ

عُمَرْ:

لَقَدْ أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ اَلْبَلْدَةِ وَأَنَا أَهْدِفُ قَتْلُ ذَلِكَ اَلْمُجْرِمِ وَاَلَّذِي أَذَاقَ اَلنَّاسُ اَلْوَيْلَاتِ وَحَرْقَ اَلْكَثِيرِ مِنْهُمْ أَحْيَاءً بِلَا قَلْبٍ وَلَا رَحْمَةً وَلَا شَفَقَةً لَقَدْ كُنْتُ أَتَرَصَّدهُ أَمَام أَحَدِ اَلْمُسْتَشْفَيَاتِ وَعِنْدَمَا ظَهَرَ لِي أَطْلَقَتْ عَلَيْهِ ثَلَاثَ طَلَقَاتٍ وَفَرَرْتَ هَارِبًا.

فَارِسٌ:

هَلْ أَصَبْتُهُ وَهَلْ رَأَيْتَهُ يَسْقُطُ قَتِيلَ

عُمْرٍ:

لَا أَدْرِي سَيَتَّضِحُ ذَلِكَ اَلْأَمْرِ فِيمَا بَعْدُ وَلَكِنِّي أَظُنّ نَفْسِيٌّ قَدْ أَصَبْتُهُ.

وَبَيْنَمَا يَتَحَادَثُونَ إِذْ بِبَاب فَارِسِ يَطْرُقُ وَهُنَا أَخْذُ فَارِسِ بِالْقَلَقِ وَالْخَوْفِ وَخَرَجَ لِيَسْأَلَ مِنْ فِي اَلْبَابِ فَأَجَابَهُ أَنَا صُهَيْبْ وَهُوَ صَدِيقُ فَارِسِ قَدْ عَرَفَهُ مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ عَامٍ وَنِصْفٍ وَخَبَّرَ فِيهِ صِدْقَهُ وَحُبَّهُ وَوَفَاءَهُ.

لَطَالَمَا اِمْضُوا اَللَّيَالِيَ سَوِيَّةٌ يَتَسَامَرُونَ وَيَتَحَادَثُونَ وَيَتَكَلَّمُونَ بِمَا حَدَثَ وَسَيَحْدُثُ.

دَخْلُ صُهَيْبُ اَلْبَيْتِ وَقَامَ فَارِسُ بِتَقْدِيمِ عُمَرْ لِصُهَيْبْ وَحَدَّثَهُ مَا كَانَ يَصْنَعُهُ وَأَنَّهُ مِنْ اَلرِّجَالِ اَلشُّجْعَانِ وَاَلَّذِينَ يَعْتَزُّ بِهُمْ وَيَفْتَخِرُ وَأَخَذُوا يَتَبَادَلُونَ اَلْحَدِيثُ إِلَى أَنَّ حَلَّ مُنْتَصَفِ اَللَّيْلِ وَهُنَا طَلَبَ عُمَرْ مِنْ فَارِسِ أَنْ يَسْتَطْلِعَ لَهُ اَلطَّرِيقُ لِأَنَّهُ سَيُغَادِرُ تِلْكَ اَلْبَلْدَةِ وَيَعُودُ إِلَى حَيْثُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَعَ مِنْ يَنْتَظِرُهُ مِنْ أَصْدِقَاءِ اَلطَّرِيقِ.

وَقَدْ خَرَجَ عُمَرْ فِي جُنْحِ اَلظَّلَامِ مُوَدِّعًا فَارِسَ وَمُذَكِّرٌ إِيَّاهُ بِالْحِرْصِ وَعَدَمِ اَلثِّقَةِ بِأَحَدِ لِكَيْ لَا يَكُونُ صَيْدٌ سَهْلٌ لِمَنْ يَتَرَصَّدُهُ أَوْ يَتَرَقَّبُهُ.

وَبَعْدُ مُغَادَرَةِ عُمَرْ بَيْتُ فَارِسِ أَخْذَ صُهَيْبْ يَسْتَفْسِرُ مِنْ فَارِسِ عَنْ عُمَرْ وَوُجْهَتُهُ وَهَلْ اِسْتَطَاعَ اَلنِّيلُ مِنْ ذَلِكَ اَلظَّالِمِ وَاَلَّذِي أَذَاقَ اَلنَّاسُ عَدِيدَ اَلْآلَامِ وَالْوَيْلَاتِ.

رُبَّمَا كَانَتْ تِلْكَ اَللَّيْلَةَ آخِر أَيَّامِ صَفَاءِ فَارِسِ وَنِهَايَةَ كُلّ تِلْكَ اَلْأَحْلَامِ اَلَّتِي رَسَمَهَا فِي مُخَيِّلَتِهِ وَاعِدٌ لَهَا عَدِيدِ اَللَّيَالِي وَالسِّنِينَ اَلْمَاضِيَة . . .

لَمْ يَبْقَ اَلْكَثِيرَ لِيُنْهِيَ فَارِسُ دِرَاسَتَهُ وَكَانَ ذَلِكَ كُلُّ هَمِّهِ وَأَكْبَر أَحْلَامِهِ وَفِي صَبَاحِ اَلْيَوْمِ اَلتَّالِي فِي صَيْفِ ذَلِكَ اَلْعَامِ وَاَلَّذِي كَانَ مِنْ أَشَدَّ وَأَقْسَى أَيَّامِ فَارِسِ وَاَلَّذِي كَانَ مَا قَبْلَهُ لَيْسَ كَمَا بُعْدهُ كَانَ فَارِسُ يَتَجَهَّزُ لِلْخُرُوجِ مِنْ اَلْمَنْزِلِ وَقَدْ كَانَ وَقْتُ اَلظَّهِيرَةِ عِنْدَمَا تَمَّ كَسْرُ اَلْبَابِ وَدَخَلَ عَلَيْهِ مَجْمُوعَةُ مُسَلَّحِينَ يَحْمِلُونَ بَنَادِقُ حَرْبِيَّةٌ وَيرْتَدُونَ ذَلِكَ اَلزِّيِّ اَلْمُوَحَّدِ وَيَتَلَفَّظُونَ بِأَلْفَاظِ سُوقِيَّةٍ لِيَجِدَ فَارِسُ نَفْسُهُ مُحَاطًا بِكُلِّ تِلْكَ اَلْبَنَادِقِ وَكُلِّ أُولَئِكَ اَلرِّجَالِ وَاَلَّذِينَ طَلَبُوا مِنْهُ بِلَهْجَةٍ شَدِيدَةٍ وَبِصِيغَةِ اَلْأَمْرِ رَفْعَ يَدَيْهِ وَالْجُلُوسُ عَلَى اَلْأَرْضِ

وَبُعْدِ قَلِيلٍ لِيَدْخُلَ خَلْفَهُمْ شَخْصٌ يَرْتَدِي شَارَاتٍ عَلَى كَتِفَيْهِ مُحَمَّل بِكُلِّ ذَلِكَ اَلْحِقْدِ وَالْغُلِّ وَالْكُرْهِ وَقَدْ بَانَ أَنَّهُ قَائِدُهُمْ لَمْ يَتَحَدَّثْ بِأَيِّ حَرْفٍ بَلْ أَخَذَ بِضَرْبِ فَارِس بِشِدَّةٍ وَبِلَا رَحْمَةٍ وَفِي تِلْكَ اَللَّحْظَةِ ظَنَّ فَارِسُ أَنَّهَا اَلنِّهَايَةُ وَأَنَّهُ مَقْتُولٌ لَا مَحَالَةَ عَجْز لِسَانِهِ عَنْ اَلنُّطْقِ وَأَخْذِ يَسْتَذْكِرُ كُلُّ تِلْكَ اَلْأَحْدَاثِ اَلَّتِي سَمِعَ بِهَا مِنْ قَتْلٍ وَحَرْقٍ أَوْ رُبَّمَا غِيَابٌ بِلَا عَوْدَةٍ

وَبُعْدِ قَلِيلٍ لَمْ يَعُدْ فَارِسُ يَرَى شَيْءَ تَمَّ إِغْلَاقُ عَيْنَيْهِ وَتَجْرِيدِهِ مِنْ لِبَاسِهِ وَزَجِّهِ فِي سَيَّارَةٍ قَدْ اِصْطَفَّتْ عَلَى بَابِ مَنْزِلِهِ يُرَافِقُهُ حَارِسَانِ وَأَخْذٌ يَسْمَعُ تَكْسِيرًا فِي مَنْزِلِهِ رُبَّمَا كَانُوا يَبْحَثُونَ عَنْ شَيْءٍ لَا يَعْلَمُ مَا هُوَ

وَبُعْد قَلِيلٍ أَتَاهُ أَحَدُهُمْ وَسَأَلَ فَارِسُ مَنْ كَانَ فِي بَيْتِكَ لَيْلَةَ اَلْأَمْسِ

لِيُجِيبَ فَارِسُ لَا أَحَد أَنَا لَا يَزُورُنِي سِوَى بَعْضِ اَلْأَصْدِقَاءِ وَالْجِيرَانِ

وَأَعَادَ اَلسُّؤَالُ وَمِنْ زَارَكَ فِي لَيْلَةِ اَلْبَارِحَةَ

فَأَجَابَ صَدِيقِي صُهَيْبْ هُوَ اِبْنُ هَذَا اَلْحَيِّ وَيَسْكُنُ فِي بَيْتِهِ بِجَانِبِ مَنْزِلِيٍّ

لَمْ يَكْتَرِثْ لِاسْمِ صُهَيْبْ وَلَمْ يُطِلْ اَلْحَدِيثُ فِي شَأْنِهِ وَهُوَ مَا أَثَارَ اِسْتِغْرَابُ فَارِسِ.

بَلْ أَعَادَ اَلسُّؤَالُ عَلَى فَارِسِ بِشَكْلٍ أَوْضَحَ لَقَدْ كَانَ فِي بَيْتِكَ مُسَلَّحِينَ لَيْلَةَ اَلْأَمْسِ وَأَنْتَ سَاعَدَتْهُمْ عَلَى اَلْخُرُوجِ مِنْ هَذِهِ اَلْمَدِينَةِ فَمَنْ هُمْ وَأَيْنَ ذَهَبُوا.

فَارِسٌ:

لَمْ يَكُنْ فِي بَيْتِي أَحَد وَلَا أَعْلَمُ عَنْ أَيِّ شَيْءٍ تَتَحَدَّثُونَ.

لَمْ تَلْقَ تِلْكَ اَلْإِجَابَةِ رِضًى مِنْ سَمِعَهَا بَلْ كَانَ اَلرَّدُّ بِضَرْبِ فَارِسِ وَبِبَعْض اَلشَّتَائِمِ وَتَوَعُّدِهِ بِكَثِيرِ اَلْعَذَابِ وَالْعِقَابِ. لَمْ يَكُنْ فَارِسُ يَتَوَقَّعُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ نِهَايَتُهُ وَأَخَذَ بِالتَّفْكِيرِ اَلْكَثِيرِ مَاذَا سَيَحُلُّ بِي وَكَيْفَ سَيَعْلَمُ أَهْلِيٌّ بِغِيَابِي وَمِنْ سَيَمُدُّ يَدَ اَلْعَوْنِ لِي.

أَنَا اَلْآنَ وَحِيدٍ وَعَاجِزٍ لَا أَعْلَمُ شَيْئًا وَإِنِّي أَرَى نَفْسِي ًّ مَغِيبٍ وَمَقْتُولٍ لَا مَحَالَةً سَأَنْتَظِرُ مَصِيرِي بِحُرْقَةٍ وَأَلَمٍ وَبَدَأَتْ تِلْكَ اَلسَّيَّارَةِ بِالِانْطِلَاقِ لَمْ تَكُنْ مَسَافَةٌ بَعِيدَةٌ وَلَكِنَّهَا فِي نَظَرِ فَارِسِ كَانَتْ سِنِين وَشُهُور وَدَهْرٍ.

يَطْوِي بِهَا اَلْأَرْضُ وَيَجْهَلُ مَا فِيهَا وَبَعْد فَتْرَةٍ قَصِيرَةٍ تَوَقَّفَتْ تِلْكَ اَلسَّيَّارَةِ وَتَمَّ إِخْرَاجُ فَارِسِ مِنْهَا وَزَجُّهُ فِي زِنْزَانَةٍ إِفْرَادِيَّةٍ بِطَلَبٍ مِنْ قَائِدِهِمْ وَأَخْبَرَهُمْ بِأَنَّهُ شَخْصٌ خَطِيرٌ وَأَنَّ سَيَخْضَعُ لِتَحْقِيقٍ مُطَوَّلٍ فِيمَا بَعْدُ.

جَلَسَ فَارِسُ مُتَأَمِّلٌ تِلْكَ اَلزِّنْزَانَةِ وَأَخْذِ يُفَكِّرُ كَثِيرًا لِمَاذَا أَنَا هُنَا لِمَاذَا لَمْ أُغَادِرْ هَذِهِ اَلدِّيَارِ مَعَ مِنْ غَادَرَ لِمَاذَا قَسَتْ اَلْحَيَاةُ عَلِي وَمَا زَالَتْ

لِمَاذَا أَنَا شَخْصٌ سَيِّئٌ اَلحَظِّ تُلَاحِقُنِي كُلُّ تِلْكَ اَلْمَتَاعِبِ وَالْمَصَائِبِ

وَأَخَذَتْ اَلسَّاعَاتُ تَمْضِي فِي تِلْكَ اَلزِّنْزَانَةِ اَلْقَذِرَةِ وَاَلَّتِي يَجْلِسُ خَلْفَهَا أُنَاسٌ قَذِرَيْنِ لَا يَمَلُّونَ اَلظُّلْمُ وَلَا يَحْتَرِمُونَ ضَمَائِرُهُمْ وَلَا حَتَّى يَخَافُوا مِنْ رَأَيْتُ دِمَاءُ ضَحَايَاهُمْ وَيَتَلَذَّذُونَ بِمَصَايِرِهِمْ وَتَعْذِيبِهِمْ.

لَمْ يَكُنْ فَارِسُ يَعْلَمُ بِتَوْقِيتِ ذَلِكَ اَلْيَوْمِ فَهُوَ مَغِيبٌ تَحْتَ اَلْأَرْضِ وَفِي جِوَارِهِ زِنْزَانَاتٍ أُخْرَى يَقْبَعُ فِيهَا أُنَاسُ آخَرُونَ لَا يَعْلَمُ حَالَهُمْ وَلَا حَتَّى أَسْمَاؤُهُمْ

وَقَدْ جَاءَ لَيْلُ ذَلِكَ اَلْيَوْمِ وَأَخَذَ فَارِسُ يَسْمَعُ نِدَاءَ بَعْضِ اَلْجَلَّادِينَ عَلَى بَعْضِ اَلْأَسْمَاءِ مِنْ تِلْكَ اَلزِّنْزَانَةِ اَلَّتِي تَجَاوُرُهُ وَيَسْمَعُ أَصْوَاتَ اَلْأَبْوَابِ المؤصدة تَفْتَحُ تِبَاعًا وَكَانَتْ تِلْكَ اَللَّيْلَةَ مِنْ أَشَدِّ اَللَّيَالِي اَلَّتِي عَاشَهَا فَارِسُ أَصْوَاتَ نِسَاءٍ تَصْرُخُ مِنْ اَلْأَلَمِ تَحْتَ وَطْأَتْ اَلتَّعْذِيبَ وَتَارَةَ أُخْرَى أَصْوَاتَ رِجَالٍ قَدْ تَشَبَّعَتْ مِنْ اَلْأَلَمِ وَالظُّلْمِ وَالْحَسْرَةِ

وَمَعَ كُلِّ هُدُوءٍ يُرَافِقُ ذَلِكَ اَلْمَكَانِ كَانَ فَارِسُ يَنْتَظِرُ دَوْرُهُ وَأَنْ تَصْدَحَ إِحْدَى تِلْكَ اَلْحَنَاجِرِ بِاسْمِهِ لِيَتِمَّ جَرَّهُ إِلَى غُرْفَةِ اَلتَّعْذِيبِ وَالتَّنْكِيلِ

وَتَمْضِي اَلدَّقَائِقُ وَالسَّاعَاتُ بِبُطْءِ شَدِيدٍ وَبِأَلَمٍ وَحَسْرَةٍ لَمْ يَعِشْهَا فَارِسُ مِنْ قِبَلِ وَمَعَ كُلِّ لَحْظَةٍ يُسْهِبُ فِي اَلتَّفْكِير وَالتَّأَمُّلِ وَيَحْتَرِقُ مَعَ كُلِّ نَفْسٍ يَخْرُجُ مِنْهُ أَوْ يَأْخُذُهُ

وَمضَتْ عَدِيدَ اَلْأَيَّامِ وَفَارِسِ عَلَى هَذِهِ اَلْحَالَةِ لَا يَمْلِكُ سِوَى حَسْرَةِ اَلْفِرَاقِ وَأَمَلَ اَلْبَقَاءُ وَيَمْتَزِجُ كُلُّ ذَلِكَ بِدُمُوعٍ تَحْرُقُ قَلْبَهُ قَبْلَ عَيْنَيْهِ وَوَجْنَتَيْهِ

وَبُعْدُ مُضِيِّ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ جَاءَ ذَلِكَ اَلصَّبَاحِ وَتَفَتَّحَتْ عُيُونُ مِنْ سَيَمُوتُونَ أَوْ حَتَّى مِنْ سَتُغَيِّبُهُمْ اَلسُّجُونُ أَوْ مِنْ سَيَعِيشُونَ عَلَى أَمَلِ اَللِّقَاءِ وَيَتَسَلَّحُونَ بِالصَّبْرِ وَالْإِيمَانِ وَالْقُوَّةِ.

أَخْذُ اَلسَّجَّانِ بِفَتْحِ تِلْكَ اَلنَّوَافِذِ اَلصَّغِيرَةِ اَلَّتِي تَفْصِلُ بَيْنَ كُلِّ تِلْكَ اَلزِّنْزَانَاتِ وَأَخْذٍ يُنَادِي عَلَى بَعْضِ اَلْأَسْمَاءِ اَلْمُتَوَاجِدَةِ فِيهَا أَخْذُ فَارِسِ بِالتَّرْكِيزِ فِي هَذِهِ اَلْأَسْمَاءِ وَهُوَ يَجْهَلُ هَلْ سَيَكُونُ مِنْ بَيْنِهَا أُمٍّ لَا.

وَبَعْدُ ذِكْرِ بَعْضِ اَلْأَسْمَاءِ نَادَى اَلسَّجَّانُ بِصَوْتٍ عَالٍ عَلَى اِسْمِ فَارِسِ وَبَعْدَ قَلِيلٍ اِنْتَهَى مِنْ ذِكْرِ تِلْكَ اَلْأَسْمَاءِ وَطَلَبَ مِنْهَا اَلتَّجَهُّزُ لِلرَّحِيلِ لَمْ يَعْلَمْ فَارِسُ إِلَى أَيْنَ سَتَكُونُ اَلْوُجْهَةُ.

وَبَعْدُ قَلِيلٍ بَدَأَ اَلسَّجَّانُونَ بِفَتْحِ تِلْكَ اَلْأَبْوَابِ المؤصدة وَاَلَّتِي أَثْقَلَتْهَا هُمُومُ سَاكِنِيهَا وَآلَامِهِمْ وَمِنْ بَيْنِ تِلْكَ اَلْأَبْوَابِ تِلْكَ اَلْبَوَّابَةِ اَلَّتِي يَقْطُنُ فِيهَا فَارِسُ.

وَطَلَبَ اَلسَّجَّانُ مِنْ فَارِسِ اَلْخُرُوجِ إِلَيْهِ وَقَامَ بِتَغْطِيَةِ عَيْنَيْهِ وَتَكْبِيلِ يَدَيْهِ وَجَرِّهِ إِلَى دَاخِلِ تِلْكَ اَلسَّيَّارَةِ وَاَلَّتِي اِنْطَلَقَتْ وَلَا يَعْلَمُ أَحَدُ وُجْهَتِهَا وَنِهَايَتِهَا وَهُنَا زَادَ يَقِينُ فَارِسِ أَنَّ طَرِيقَةَ طَوِيلٍ وَأَنَّهُ يَجْهَلُ نِهَايَتَهُ وَلَكِنَّهُ أَخَذَ يَتَأَمَّلُ وَيُفَكِّرُ كَثِيرًا هَلْ سَأَعُودُ إِلَى اَلْحَيَاةِ وَهَلْ سَأَرَى نُورَ تِلْكَ اَلشَّمْسِ اَلسَّاطِعَةِ مِنْ جَدِيدٍ هَلْ سَأَلْتَقِي بِمَنْ أَحَبَّ مِنْ جَدِيدٍ وَأَعُودُ إِلَى ذَلِكَ اَلنَّشَاطِ وَالْأَمَلِ اَلَّذِي سَقَطَ أَمَامَ عَيْنِي وَبَدَأَ اَلتَّلَاشِي .

اِسْأَلْهُ عَدِيدَةً تَجَوُّل فِي خَاطِرِهِ وَلَكِنَّهُ يَجْهَلُ جَوَابُهَا وَكُلُّ مَا يَعْرِفُهُ أَنَّهُ سَيَتَسَلَّحُ بِأَلَمِ اَلْبَقَاءِ وَالْعَوْدَةِ إِلَى اَلْحَيَاةِ مِنْ جَدِيدٍ

لَمْ يَمْضِ وَقْتٌ طَوِيلٌ مَا هِيَ إِلَّا خَمْسُونَ دَقِيقَةً وَقَدْ حَطَّتْ تِلْكَ اَلْقَافِلَةِ اَلْمُدَجَّجَةِ بِالسِّلَاحِ وَالرِّجَالِ وَالْقُيُودِ رِحَالَهَا وَفَتَحَتْ كُلَّ تِلْكَ اَلْأَبْوَابِ المؤصدة وَتَمَّ إِفْرَاغُهَا مِمَّنْ أَثْقَلَتْهُمْ اَلْقُيُودُ وَأَعْمَتْ عُيُونَهُمْ تِلْكَ اَلْأَغْطِيَةِ اَلسَّوْدَاءِ وَالَّتِي تَحْجُبُ اَلنَّظَرَ..

تَمَّ نَقْلُ فَارِسِ وَمِنْ يُرَافِقُهُ مُكَبَّلِينَ اَلْأَيْدِيَ بِالْأَصْفَادِ وَتَمَّ إِنْزَالُهُمْ فِي دَرَجٍ تَحْتَ اَلْأَرْضِ لَمْ يَعْلَمْ مَعَالِمَهُ وَلَكِنَّهُ يُحِسُّ بِظَلَامِهِ وَعُمْقِهِ وَظَلَامٍ مِنْ يَحْرُسُهُ وَفَجْأَةً تَوَقَّفَتْ اَلْحَرَكَةُ وَتَمَّ فَتَحَ بَابٌ بَدَا ثِقْلُهُ وَأَخْذُ اَلسَّجَّانِ يُزِيلُ غِطَاءَ اَلْعَيْنِ وَيَفُكُّ قَيْدُ اَلْيَدَيْنِ وَاحِدٌ تِلْوَ اَلْآخَرِ وَيَرْمِي بِهُمْ دَاخِلَ زِنْزَانَةٍ كَبِيرَةٍ مُغْلَقَةٍ لَا يَرَى فِيهَا نُورٌ وَلَا يَسْمَعُ فِيهَا صَوْتُ مَا يُنِيرُهَا هُوَ فَقَطْ ذَلِكَ اَلْمِصْبَاحِ اَلَّذِي لَا تَطَالُهُ اَلْأَيْدِي وَرَغْمَ كِبَرِ تِلْكَ اَلزِّنْزَانَةِ إِلَّا أَنَّ أَعْدَادَ مِنْ فِيهَا قَدْ فَاقَ بِكَثِيرٍ مِسَاحَتُهَا حَتَّى ضَاقَتْ بِهُمْ وَلَمْ تَعُدْ تَكْفِي حَتَّى لِمَدِّ يَدِ أَحَدُهُمْ أَوْ قَدَمِهِ

كَانَ فَارِسُ يَشْعُرُ بِأَنْفَاسِ كُلِّ شَخْصِ فِيهِمْ وَيَرَى اَلْخَوْفُ فِي عُيُونِهِمْ وَكَانَ فِي طَرَفِ آخِرٍ أَشْخَاصٍ قَدْ هَدَّهُمْ اَلْمَرَضُ وَالتَّعَبُ وَبَدَتْ تِلْكَ اَلْجُرُوحِ وَالْكَدَمَاتِ ظَاهِرَةً عَلَيْهِمْ حَتَّى أَنَّ دِمَاءَهُمْ قَدْ اِمْتَزَجَتْ بِثِيَابِهِمْ وَأَخْفَتْ تَفَاصِيلَهَا وَفِي أَحْيَانٍ كَثِيرَةٍ أَخْفَتْ حَتَّى مَعَالِمِ وُجُوهِهِمْ وَرُؤُوسِهِمْ

جَلَسَ فَارِسُ فِي زَاوِيَةِ تِلْكَ اَلزِّنْزَانَةِ وَفِي نَفْسِهِ شَيْئًا مِنْ اَلرَّهْبَةِ وَالْخَوْفِ وَلَكِنْ كَانَ لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ عَنْ هَذَا اَلْمَكَانِ وَتَفَاصِيلِهِ وَهُوَ يَجْهَلُهُ

فَأَجَابَهُ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ مَكَانٌ أَشْبَهَ بِجَحِيمٍ لَا صَوْت يَعْلُو فِيهِ فَوْقَ صَوْتِ اَلْأَلَمِ وَالْعَذَابِ وَأَنَّهُ سَيَمُرُّ بِهَذَا اَلطَّرِيقِ وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَتَجَمَّلَ بِالصَّبْرِ وَأَنْ يَتَجَلَّدَ أَمَامَ تِلْكَ اَلضَّرَبَاتِ وَانْ لَا يُجِيبُ عَلَى أَيِّ سُؤَالٍ أَوْ يُدْلِي بِأَيِّ اِعْتِرَافَاتٍ مُهِمًّا عَانَى مِنْ أَلَمٍ وَعُنْفٍ.

فَارِسٌ:

كَمُّ مِنْ اَلْوَقْتِ لَكَ هُنَا وَمَا هُوَ اِسْمُكَ

اِسْمِي لَيْث وَلِيِّ هُنَا مَا يُقَارِبُ اَلشَّهْرَيْنِ

فَارِسَ:

مُتَعَجِّب شَهْرَانِ!

لَيْثٌ:

نَعِمَ شَهْرَانِ وَهُنَاكَ أَشْخَاصُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ.

فَارِسٌ :

وَهَلْ هُنَاكَ أَشْخَاصٌ يَخْرُجُونَ مِنْ هُنَا

لَيْث :

نَعِمَ إِذَا قَامَ بِتَقْدِيمِ اِعْتِرَافَاتٍ يَتِمُّ نَقْلُهُ إِلَى سِجْنٍ آخَرَ وَإِذَا لَمْ يُقَدِّمْ أَيُّ اِعْتِرَافَاتٍ وَكَتَبَ لَهُ اَلْعَيْشُ وَنَجَّى مِنْ كُلِّ ذَلِكَ اَلتَّعْذِيبِ سَيَبْقَى فَتْرَةً وَيَتِمُّ نَقْلُهُ إِلَى اَلْمَحْكَمَةِ لِتَنْظُرَ فِي أَمْرِهِ

فَارِسَ :

وَمَا هِيَ هَذِهِ اَلْمَحْكَمَةِ وَهَلْ تُنْصِفكَ

لَيْث :

لَمْ تَخْلُقْ هَذِهِ اَلْمَحْكَمَةِ لِتُنَصِّفكَ بَلْ لِتُعْطِيَ ظَالِمِيكَ وَسَجَّانِيكَ اَلشَّرْعِيَّةَ وَالْأَحَقِّيَّةِ فِيمَا يَصْنَعُونَ وَكُلُّ تِلْكَ اَلْأَحْكَامِ مَا هِيَ إِلَّا أَحْكَامٌ عُرْفِيَّةٌ قَدْ خَلَقَتْ لِتَدَيُّنِكَ وَتَزُجّ بِكَ فِي اَلسِّجْنِ إِلَى أَنْ تَمُوتَ أَوْ إِلَى أَنْ يَشَاءَ اَللَّهُ أَوْ لِتَمْنَحهمْ اَلشَّرْعِيَّةُ فِي حَالِ مَوْتِكَ دَاخِلَ هَذَا اَلسِّجْنِ أَوْ غَيْرِهِ وَلَكِنْ عَلَيْكَ أَنْ لَا تُجِيبُ عَلَى أَيِّ سُؤَالٍ وَأَنَّ تَتَجَلَّد أَمَامَ تِلْكَ اَلضَّرَبَاتِ وَإِلَّا سَيَتِمُّ نَقْلُكَ إِلَى سُجُونِ أَكْثَرِ بَشَاعَةٍ وَظُلْمًا وَأَحْكَامًا قَاسِيَةً قَدْ تَنْتَهِي بِقَتْلِكَ .

عَلَيْكَ اَلتَّمَسُّكُ بِالْأَمَلِ وَالصَّبْرِ وَدُعَاءْ اَللَّهِ . . .

وَأَثْنَاءَ ذَلِكَ اَلْحَدِيثِ تَفْتَحُ بَوَّابَةَ تِلْكَ اَلزِّنْزَانَةِ وَيُنَادِي اَلسَّجَّانُ عَلَى فَارِسِ لِيَخْرُجَ إِلَى اَلْبَابِ وَتُقَيِّدُ يَدَيْهِ وَتغَطَّى عَيْنَاهُ وَيَجُرُّ إِلَى مَكَانٍ قَرِيبٍ وَيَطْلُبُ مِنْهُ اَلْجُلُوسُ عَلَى اَلْأَرْضِ

فَارِسِ :

يَنْتَظِرَ أَنْ يَقُومَ أَحَدُهُمْ بِسُؤَالِهِ وَقَدْ بَدَأَ اَلصَّمْتُ عَلَى اَلْجَمِيعِ وَلَمْ تَكُنْ مَسْمُوعَةً سِوَى بَعْضِ حَرَكَاتٍ مِنْ حَوْلِهِ وَأَصْوَاتُ أَقْدَامِهِمْ.

وَلَكِنَّهُ تَفَاجَأَ بِإِحْدَى اَلضَّرَبَاتِ اَلْقَوِيَّةِ عَلَى ظَهْرِهِ لِيَصْرُخَ مِنْ اَلْأَلَمِ وَيُكَرِّرُ ذَلِكَ اَلْجَلَّادِ تِلْكَ اَلضَّرَبَاتِ وَيَزِيدُ أَلَمُهَا مَرَّةً بَعْد مَرَّةٍ.

وَفَجْأَةُ يَتَوَقَّفُ ذَلِكَ اَلْجَلَّادِ عَنْ اَلضَّرْبِ وَفَارِسِ يَتَأَلَّمُ وَيَجْهَلُ اَلْقَادِمُ.

وَتَبْدَأَ هُنَا جَلْسَةَ اَلِاسْتِجْوَابِ وَالْأَسْئِلَةِ وَاَلَّتِي يَتَخَلَّلُهَا تِلْكَ اَلضَّرَبَاتِ اَلْقَاسِيَةِ وَتِلْكَ اَلْعِبَارَاتُ اَلنَّابِيَةُ اَلَّتِي تَحْرُقُ اَلْأَنْفَاسُ.

اَلْمُحَقِّقُ بِصَوْتٍ خَشِنٍ :

مَا اِسْمُكَ؟

يُجِيبَ فَارِسَ وَيُذْكَرُ اِسْمُهُ

اَلْمُحَقِّقُ:

وَلِمَاذَا تَسْكُنُ لِوَحْدِكَ فِي ذَلِكَ اَلْحَيِّ.

فَارِسٌ:

لِأَنَّهُ قَرِيبٌ عَلَى مَكَانٍ عَمَلِيٍّ وَدِرَاسَتِي

اَلْمُحَقِّقَ:

وَلِمَاذَا تَتَعَاوَنُ مَعَ اَلْمُسَلَّحِينَ وَالْمُخَرِّبِينَ

فَارِس:

أَبَدًا يَا سَيِّدِي هَذَا اَلْكَلَامِ غَيْرِ صَحِيحٍ فَأَنَا لَا أَهْتَمُّ إِلَّا لِدِرَاسَتِي وَعَمَلِيَّ.

اَلْجَلَّادُ:

يَبْدَأَ بِضَرْبِ فَارِسِ بِقُوَّةٍ أَكْبَرَ.

فَارِسٌ:

يَسْقُطَ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ شِدَّةِ اَلْأَلَمِ وَيَزِيدُ اَلْجَلَّادُ مِنْ ضَرَبَاتِهِ وَقُوَّتِهَا لِفَارِسِ وَيَشْتُمهُ بِأَقْبَحِ اَلْأَلْفَاظِ

اَلْمُحَقِّقِ:

لَقَدْ قُمْتُ بِمُسَاعَدَةِ بَعْضِ اَلْهَارِبِينَ عَلَى اَلْخُرُوجِ مِنْ اَلْمَدِينَةِ وَقُمْتُ بِالتَّعَاوُنِ مَعَهُمْ وَإِخْفَائِهِمْ عَنَّا. عَلَيْكَ أَنْ تُعْطِيَنِي أَسْمَاءَهُمْ وَإِلَى إِلَى أَيْنَ ذَهَبُوا.

فَارِسٌ:

صَدِّقْنِي يَا سَيِّدِي لَا أَعْلَمُ عَنْ مَاذَا تَتَحَدَّثُ فَأَنَا شَخْصٌ لَا أُحِبُّ اَلْمَشَاكِلُ وَأَتَجَنَّبهَا وَلَا أَعْلَمُ عَنْ مَاذَا تَتَحَدَّثُ.

وَبَعْدُ صَمْتٍ قَلِيلٍ يَقُومُ اَلْجَلَّادُ بِسَحْبِ فَارِسِ وَرَمِيَّةً دَاخِلَ اَلزِّنْزَانَةِ وَهُوَ يَجْهَلُ مَا هُوَ اَلْقَادِمُ وَلَكِنَّهُ يَشْعُرُ بِآلَامِ تِلْكَ اَلضَّرَبَاتِ وَيَحُسُّ بِآثَارِهَا فِي جَسَدِهِ

وَبَعْدَ دُخُولِ فَارِسِ قَامَ شَخْصَانِ بِمُسَاعَدَتِهِ عَلَى اَلنُّهُوضِ وَالنَّظَرِ إِلَى جُرُوحِهِ وَسَأَلُوهُ مَا اَلَّذِي حَدَثَ وَمَاذَا أَجَبْتُ حَدَّثَهُمْ فَارِسُ بِمَا دَارَ مِنْ حَدِيثٍ وَقَامَ بِسُؤَالِهِمْ هَلْ اِنْتَهَيْتُ أَمْ سَيَقُومُونَ بِطَلَبِي مَرَّةً أُخْرَى.

فَكَانَ جَوَابُهُمْ هَلْ طَلَبُوا مِنْكَ أَنْ تَمْضِيَ عَلَى بَعْضِ اَلْأَوْرَاقِ؟

فَارِسُ لَا لَمْ يَطْلُبُوا مِنِّي ذَلِكَ.

أَحَدُهُمْ يُجِيبُ:

قَدْ يُعَاوِدُونَ طَلَبُكَ وَسُؤَالُكَ أَوْ قَدْ يَقُومُونَ بِإِرْسَالِكَ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ وَقَبْلَ ذَلِكَ سَيَطْلُبُونَ مِنْكَ أَنْ تَمْضِيَ عَلَى بَعْضِ اَلْأَوْرَاقِ وَهِيَ مَجْمُوعَةُ تِلْكَ اَلتُّهَمِ وَالَّتِي سَتُنْسَبُ إِلَيْكَ وَتَقَبَّلَ بِهَا مُرْغَمًا . . .

لَمْ يَشْعُرْ فَارِسُ بِأَيِّ لَحْظَةِ أَمَانِ فَمَعَ كُلِّ صَوْتٍ أَوْ حَرَكَةٍ كَانَ يَنْتَفِضُ وَيَحُسُّ أَنَّهُ بِخَطَرٍ قَادِمٍ وَأَلَمِ أَكْبَرَ يَنْتَظِرُهُ لَمْ تَكُنْ تِلْكَ اَلزِّنْزَانَةِ سِوَى قَبْرٍ لِلْأَحْيَاءِ يَأْخُذُونَ أَنْفَاسُهُمْ عَنْوَةِ وَيَتَجَرَّعُونَ مَرَارَةَ اَلذُّلِّ وَالْخَوْفِ وَالْجُوعِ.

كَانَ فَارِسُ يَظُنُّ أَنَّهَا اَلنِّهَايَةُ وَلَكِنَّهُ أَخَذَ بِالتَّسَلُّحِ بِذَلِكَ اَلْأَمَلِ وَالصَّبْرِ وَالثِّقَةِ بِاللَّهِ وَحْدَهُ.

لَمْ يَمْضِ سِوَى أُسْبُوعٍ وَاحِدٍ لِيَطْرُقَ اَلْبَابُ وَتَفْتَحُ تِلْكَ اَلنَّافِذَةِ اَلصَّغِيرَةِ وَيَقُومُ اَلسَّجَّانُ بِذِكْرِ ثَلَاثَةِ أَسْمَاءٍ كَانَ أَحَدُهَا فَارِسُ وَيَطْلُبُ مِنْهُمْ اَلْقُدُومُ إِلَى تِلْكَ اَلنَّافِذَةِ وَالْمُضِيِّ عَلَى تِلْكَ اَلِاعْتِرَافَاتِ اَلْمُدَوَّنَةِ عَلَى تِلْكَ اَلْأَوْرَاقِ.

لَا أَحَدَ يَعْلَمُ مَاذَا كَتَبَ فِيهَا أَوْ إِلَى أَيْنَ سَيَذْهَبُونَ فَقَطْ طَلَبَ مِنْهُمْ تَجْهِيزِ أَنْفُسِهِمْ لِلرَّحِيلِ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ.

أَخْذُ فَارِسِ بِالسُّؤَالِ وَلَكِنْ لَا أَحَدَ يَعْلَمُ وَجِهْتُمْ وَإِلَى أَيْنَ سَتَكُونُ وَبَعْدُ مُضِيِّ بَعْضِ اَلْوَقْتِ نَادَى اَلْمُنَادِي بِخُرُوجِهِمْ وَأَخَذَ بِتَكْبِيلِهِمْ وَتُغَطِّيهُ أَعْيُنُهُمْ وَجَرُّهُمْ لِيَصْعَدُوا ذَلِكَ اَلدَّرَجِ اَلَّذِي قَدْ خَبَرُوا قَسَاوَتَهُ عِنْدَ نُزُولِهِمْ مِنْهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ.

كَانَت اَلطَّرِيقُ قَصِيرًا جِدًّا وَتَمَّ تَسْلِيمُهُمْ وَزَجُّهُمْ فِي سِجْنٍ جَدِيدٍ وَقَدْ اِمْتَلَأَتْ اَلزِّنْزَانَةُ بِعَشَرَاتِ اَلْأَشْخَاصِ مِمَّنْ مَضَى عَلَى سَجْنِهِمْ أَشْهُر عَدِيدَةً

وَبَعْدُ قَلِيلِ أَخْذِ فَارِسِ وَمِنْ مَعَهُ بِالسُّؤَالِ عَنْ هَذَا اَلْمَكَانِ وَطَبِيعَتِهِ وَكَانَ مِنْ بَيْنِ اَلْمَوْجُودِينَ شَخْص عَرَفَهُ فَارِسُ وَكَانَ اِبْن قَرْيَةٍ مُجَاوِرَةٍ وَتَرْبُطُهُ بِهُمْ عَلَاقَاتُ نِسَبٍ وَقُرَابَةً وَقَدْ كَانَ اِسْمُهُ لؤي

شَخْص بَسِيطٍ طَيِّبٍ اَلْقَلْبِ كَانَ ضَحِيَّةَ كَبَقِيَّةِ اَلْمَوْجُودِينَ أَمْضَى سِتَّةَ أَشْهُرٍ فِي سِجْنِهِ وَقَدْ خَبَرِ تَفَاصِيلِهِ وَعَانَى آلَامَهُ وَظُلْمَهُ وَلَكِنَّهُ تَجَلَّدَ بِالصَّبْرِ وَتَسَلُّحٍ بِالْأَمَلِ كَغَيْرِهِ مِمَّنْ مَعَهُ.

وَأَخَذَ لُؤَيْ يَحْدُثُ فَارِسَ بَعْدَ سُؤَالِهِ وَاسْتِفْسَارِهِ عَنْ اَلْقَادِمِ.

لؤَيْ:

غَدًا صَبَاحًا سَيَتِمُّ أَخْذُكَ إِلَى اَلْقَاضِي وَهُوَ مَنْ سَيَقُومُ بِإِصْدَارِ اَلْقَرَارِ فِي حَقِّكَ أُمًّا بِتَرْكِكَ أَوْ بِإبقائك فِي اَلسِّجْنِ وَإِذَا تَمَّ إِيقَافُكَ سَتَمْضِي فِي هَذَا اَلْمَكَانِ اَلْوَقْتِ اَلطَّوِيلِ وَسَيَكُونُ مُسْتَقْبَلُكَ مَجْهُولاً كَمَنَ سَبْقُكَ.

كَانَ اَلْوَقْتُ عِنْدَ اَلْمَسَاءِ وَقَدْ تُسَلِّحُ فَارِسَ بِأَمَلِ اَلْخُرُوجِ وَتَكْسِيرِ اَلْقُيُودِ لَمْ يَكُنْ يَظُنُّ أَنَّهُ سَيَطُولُ سِجْنُهُ أَوْ لَمْ يَكُنْ يُرِيدُ اَلتَّفْكِيرُ بِذَلِكَ.

زِنْزَانَةٌ صَغِيرَةٌ، عَشَرَاتٌ مِنْ فِيهَا يَنَامُونَ فَوْقُ بَعْضِهِمْ وَيأْكُلُونَ قَلِيلَ اَلطَّعَامِ لَا يَكْفِي سِوَى لِإِبْقَائِهِمْ إِحْيَاءً بِالْإِضَافَةِ إِلَى عَدِيدِ اَلْأَمْرَاضِ وَكَذَلِكَ عَدِيدُ اَلْعُقُوبَاتِ بِالْإِضَافَةِ إِلَى ذَلِكَ اَلتَّعْنِيفِ اَلنَّفْسِيِّ وَتِلْكَ اَلشَّتَائِمُ اَلْجَارِحَةُ اَلَّتِي تُوقِفُ أَنْفَاسَكَ كُلَّ لَحْظَةٍ وَتَحْرُقُ فُؤَادَكَ وَأَنْتَ عَاجِزٌ لَا تَسْتَطِيعُ فِعْلَ أَيِّ شَيْءٍ

لَا تُوجَدُ أَيُّ مُقَوِّمَاتٍ تُسَاعِدُكَ عَلَى اَلْبَقَاءِ وَالصُّمُودِ أَوْ حَتَّى تَمْنَحَكَ قَلِيلُ اَلْأَمَلِ وَالتَّفْكِيرِ بِالْغَدِ فَأَنْتَ مَغِيبٌ فِي غَيَاهِبِ اَلْأَرْضِ مَعْزُولٌ عَنْ كُلٍّ مِنْ حَوَّلَكَ يَكْفِي فَقَطْ أَنْ تَفْقِدَ اَلْأَمَلَ وَالْيَأْسَ وَتُعْلِنُ اِسْتِسْلَامَكَ لِلْمَوْتِ وَتَرْكِ هَذِهِ اَلْحَيَاةِ بِأَبْسَطِ اَلطُّرُقِ

فِي تِلْكَ اَللَّيْلَةَ كَانَ اَلْكَثِيرُ مِنْ اَلْأَمَلِ يُخَالِطُ رُوحَ فَارِسِ وَيَنْقُلُهُ لِيَعِيشَ لَحْظَةَ اَللِّقَاءِ مَعَ مِنْ أَحَبَّ مِنْ أَهْلِهِ وَأَقْرِبَائِهِ وَأَصْدِقَائِهِ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ بِمَا يُخَبِّئُهُ لَهُ اَلْقَدَرُ وَالْأَيَّامُ وَلَا حَتَّى مَنْ كَانَ اَلسَّبَبُ فِي سُقُوطِهِ وَنَقَلَ إِخْبَارُهُ وَالْوِشَايَةُ عَنْهُ

وَفِي صَبَاحِ اَلْيَوْمِ اَلتَّالِي أَخْذُ اَلسَّجَّانِ بِطُرُقِ اَلْبَابِ لِيَسْتَيْقِظَ اَلنَّائِمُونَ كَمَا يَطْرُقُ اَلْبَابُ مَسَاءً لِيَمْنَحهُمْ اَلْأُذُن فِي اَلنَّوْمِ وَإِذَا سَمِعَ هَمَسَاتِهِمْ وَحُرُوفَهُمْ بَيْنَ هَذَيْنِ اَلْوَقْتَيْنِ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ تُحَلَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اَلْعِقَابِ وَالتَّلَذُّذِ بِآلَامِهِمْ وَذُلِّهِمْ وَبَعْدَ مُرُورِ سَاعَتَيْنِ مِنْ اَلْوَقْتِ.

اَلسَّجَّانُ:

يُنَادِي اِسْمُ فَارِسِ وَشَخْصَيْنِ مَعَهُ وَهُمَا مَمْدُوحْ وَبِلَالْ وَطَلَبَ مِنْهُمْ اَلْخُرُوجُ لِلذَّهَابِ إِلَى تِلْكَ اَلْمَحْكَمَةِ اللَّعِينَةِ اَلَّتِي خَلَقَتْ لِتَمْنَحَهُمْ اَلشَّرْعِيَّةُ وَالْحُرِّيَّةُ فِي خَنْقِ تِلْكَ اَلْحَنَاجِرِ وَإِطْفَاءِ نُورِ اَلْحَيَاةِ وَالْحُرِّيَّةِ فَكَيْفَ لِظَالِم أَنْ يَكُونَ هُوَ اَلْحُكْمُ وَالْجَلَّادُ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ.

فَارِسٌ:

لَمْ يَمْضِ وَقْتٌ طَوِيلٌ حَتَّى تَمَّ إِدْخَالُنَا إِلَى تِلْكَ اَلْغُرْفَةِ وَالَّتِي يَتَوَسَّطُهَا تِلْكَ اَلطَّاوِلَةِ اَلْكَبِيرَةِ وَالْجَمِيلَةِ وَالَّتِي يَقِفُ فَوْقَهَا ذَلِكَ اَلْمِيزَانِ مِيزَانَ اَلْعَدْلِ وَالَّذِي وَانْ تَسَاوَتْ كِفَّتَاهُ إِلَّا أَنَّهَا قَدْ أَثْقَلَتْ بِدِمَاءِ كُلٍّ مَظْلُومٍ وَأَسِيرٍ وَجَرِيحٍ.

وَقَدْ جَلَسَ خَلْفَ تِلْكَ اَلطَّاوِلَةِ ذَلِكَ اَلشَّخْصِ عَرِيضِ اَلْمَنْكِبَيْنِ يَرْتَدِي ذَلِكَ اَلزِّيِّ اَلْعَسْكَرِيِّ وَيضَعُ تِلْكَ اَلشَّارَاتِ اَلَّتِي يَعْتَزُّ بِهَا عَلَى كَتِفَيْهِ.

أَخْذُ يَسْأَلُنَا عَدِيدُ اَلْأَسْئِلَةِ وَقَدْ اِمْتَلَأَتْ تِلْكَ اَلْأَوْرَاقِ اَلَّتِي قَدْ أَمْضَيْنَا عَلَيْهَا سَابِقًا وَنَحْنُ نَجْهَلُ مَا

قَدْ كَتَبَ فِيهَا وَقَدْ نَسَبَتْ لِكُلِّ شَخْصِ عَدِيدِ اَلتُّهَمِ وَالِادِّعَاءَاتِ وَالَّتِي لَا أَحَدَ يَعْلَمُ عَنْهَا شَيْءُ أَوْ حَتَّى لَمٍّ يَتِمُّ سُؤَالُنَا عَنْهَا.

وَبَعْدُ اَلْإِنْكَارِ لِكُلِّ مَا ذَكَرَ تَمَّ إِخْرَاجُنَا مِنْ ذَلِكَ اَلْمَكْتَبِ اَلْفَارِهِ وَوَضْعِنَا فِي غُرْفَةٍ كَبِيرَةٍ بِنَفْسِ ذَلِكَ اَلْبِنَاءِ بِانْتِظَارِ قَرَارِ ذَلِكَ اَلشَّخْصِ وَالَّذِي يُطْلِقُونَ عَلَيْهِ اِسْمُ اَلْقَاضِي وَقَدْ زَيَّنَ بِالنَّيَاشِينِ عَلَى جُثَثِ اولاءك اَلْمَظْلُومِينَ وَالْمُضْطَهدِينَ وَالْأَبْرِيَاءَ.

فَارس :

لَقَدْ مَضَتْ سَاعَتَانِ مِنْ اَلِانْتِظَارِ وَكَأَنَّهَا دَهْرٌ لَمْ تَهْدَأْ أَنْفُسُنَا وَأَرْوَاحِنَا وَلَمْ نَتْرُكْ ذَلِكَ اَلْأَمَلِ اَلَّذِي قَدْ جَبَلَنَا عَلَيْهِ وَلَنْ نَمَلَّ مِنْهُ وَفَجْأَةِ سَمِعْنَا ذَلِكَ اَلصَّوْتِ مِنْ خَلْفِ اَلْبَابِ يُنَادِي بِلَالْ أَنْ يَقْتَرِبَ مِنْهُ وَيُخْرِجهُ وَلِيَعُودَ بُعْدٌ قَلِيلٌ وَقَدْ أَمْضَى عَلَى تِلْكَ اَلْأَوْرَاقِ وَتَمَّ إِبْلَاغُهُ بِالتَّجَهُّزِ لِلرَّحِيلِ عَادَ إِلَيْنَا بِلَالْ وَالسُّرُورُ فِي عَيْنَيْهِ وَقَدْ بَدَتْ اِبْتِسَامَتُهُ عَلَى شَفَتَيْهِ وَقَدْ أَخْبَرَنَا أَنَّهُ سَيَعُودُ إِلَى مَنْزِلِهِ لَقَدْ شَارَكْنَاهُ اَلسُّرُورَ وَهَنَّأْنَاهُ وَكُنَّا نَنْتَظِرُ أَنْ يَتِمَّ إِبْلَاغُنَا بِذَاتَ اَلْخَبَرِ اَلَّذِي قَدْ اِشْتَقْنَا إِلَيْهِ وَاحْتَرَقَتْ أَنْفُسَنَا وَأَرْوَاحِنَا لِسَمَاعِهِ

لَمْ يُطِلْ اَلْوَقْتُ عَلَى بِلَالْ تَمَّ إِخْرَاجُهُ مُودِّعًا لَنَا وَنَحْنُ نَنْتَظِرُ مَاذَا سَيَكُونُ عَلَيْهِ أَمْرُنَا وَبَعْدَ مَا يُقَارِبُ اَلسَّاعَةَ تَمَّ نِدَاؤُنَا وَتَمَّ تَقْيِيدُ يَدَيْنَا أَنَا وَمَمْدُوحْ وَقَدْ أَدْرَكْنَا طُولُ بَقَائِنَا وَأَنَّنَا مَا زِلْنَا فِي بِدَايَةِ اَلْمَأْسَاةِ وَاَلَّتِي مِنْ اَلْمُؤَكَّدِ أَنَّهَا قَدْ أَصْبَحَتْ طَوِيلَةً وَقَدْ لَا نَخْرُجُ مِنْهَا إِلَّا مُفَارِقِينَ اَلْحَيَاةَ وَأَخَذَتْ اَلدُّمُوعُ تَنْهَالُ عَلَى خُدُودِنَا وَتَحْرُقُ اَلْقُلُوبُ قَبْلَ اَلْعُيُونِ لَا عَزَاءَ لَنَا لَا بِمَنْ يُشَارِكُنَا هَذَا اَلْأَلَمِ وَالْمَأْسَاةِ

عُدْنَا إِلَى تِلْكَ اَلزِّنْزَانَةِ وَاَلَّتِي هِيَ أَشْبَهُ بِقَبْرِ طِفْلٍ صَغِيرٍ وَكَانَ ذَلِكَ اَلْيَوْمِ هُوَ مِنْ أَشَدِّ أَيَّامِ اَلْحُزْنِ اَلَّتِي عَاشَهَا فَارِسُ وَمَمْدُوحْ أَخَذَتْهُمْ اَلْحَيْرَةُ وَالْيَأْسُ وَبَدَا اَلتَّعَبُ يُلَاحِقُ أَجْسَادَهُمْ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ فَلَا مُقَوِّمَاتٌ لِلْحَيَاةِ.

اَلْكَثِيرَ مِنْ اَلْجُوعِ وَالظُّلْمِ وَالْأَسَى وَالذُّلِّ وَضِيقِ اَلْمَكَانِ وَالْعَيْشِ بِأَقْذَرِ اَلْإِمْكَانِ حَيْثُ لَا تَرَى شَمْس وَلَا تُلَمِّحُ نُورًا وَلَا تَكْفِيكَ تِلْكَ اَلْقِطْعَةَ مِنْ اَلْأَرْضِ لِتُرِيحَ قَدَمَيْكَ.

بَلْ وَيَتَلَذَّذُ كُلُّ مِنْ خَلْفِ ذَلِكَ اَلْبَابِ بِإِهَانَتِكَ وَرَشَقَكَ بِأَبْشَع اَلْأَوْصَافِ وَالْأَفْعَال وَالْعُقُوبَاتِ.

لَمْ تَكُنْ تِلْكَ اَلْأَيَّامِ تَمْضِي بِلُطْفِ بَلْ كَانَتْ تَمْضِي كَسِنَّيْنِ طَوِيلَةٍ وَدَهْرٍ مُثْقَلٍ بِكُلِّ أَنْوَاعِ اَلْأَسَى وَالْأَحْزَانِ تَقْفِزُ إِلَى ذِكْرَيَاتِهِ أَحْلَامُ اَلْمُسْتَقْبَلِ اَلضَّائِعَةِ وَاشْتِيَاقِهِ لِذَلِكَ اَلطِّفْلِ اَلصَّغِيرِ اَلَّذِي طَالَمَا أُحِبُّهُ وَتَنَفَّسَ بِأَنْفَاسِهِ بَلْ وَلَمْ تَغِبْ عَنْ مُخَيِّلَتِهِ وَعَيْنَيْهِ صُورَةَ أُمِّهِ وَاَلَّتِي أَحَبَّهَا وَطَالَمَا اِشْتَاقَ لِعِنَاقِهَا وَتَقْبِيلِ يَدَيْهَا وَأَخَذَتْ اَلْأَيَّامُ تَمْضِي وَكَأَنَّهَا سِهَامٌ تَقْطَعُ أَوْصَالَنَا وَتُنْهِك قُوَانَا كُنَّا فَقَطْ نَسْمَعُ بِتِلْكَ اَلْأَقَاوِيلِ وَاَلَّتِي كَانَتْ تَجَدُّدَ اَلْأَمَلِ فِينَا وَتَزْرَعُ بُذُورَهَا فِي أَعْمَاقِ قُلُوبِنَا أَصْبَحَ فَارِسُ يَمِيلُ إِلَى اَلْوَحْدَةِ وَأَقْرَبُ إِلَى اَللَّهِ مِنْ أَيِّ وَقْتٍ مَضَى يُكْثِرُ مِنْ ذِكْرِ اَللَّهِ وَالدُّعَاءِ بِالْفَرَجِ اَلْقَرِيبِ مُلْتَزِمًا بِصِلَاتِهِ وَاَلَّتِي كَانَ يَقُومُ بِهَا اَلْحَاضِرُونَ سِرًّا وَبِالْخَفَاءِ لِأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ مَسْمُوحَةً بَلْ كَانَتْ تُخَالِفُ قَوَانِينَ ذَلِكَ اَلْمَكَانِ وَمِنْ يَحْكُمُهُ

وَفِي إِحْدَى تِلْكَ اَللَّيَالِي اِسْتَفَاقَ فَارِسُ عَلَى حُلْمِ آثَارِ شُجُونِهِ وَخَوْفُهُ وَقَلَقُهُ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ مَا هُوَ تَفْسِيرُهُ وَهَلْ هُوَ مُجَرَّدُ حَدِيثِ نَفْسٍ وَكَابُوسٍ أُمٍّ هُوَ حَقِيقَةٌ سَتَكُونُ حَاضِرَةً وَتَكُونُ وَاقِعًا رَأَى فِي مَنَامِهِ رَجُل يَعْرِفُهُ جَيِّدًا وَيُحِبُّهُ كَثِيرًا وَهُوَ مِنْ أَقَارِبِهِ قَدْ اِسْتَفَاقَ فِي هَذِهِ اَلدُّنْيَا عَلَى مَعْرِفَتِهِ وَشَبَّ عَلَى حُبِّهِ وَصَدَاقَتِهِ يُدْعَى مُرَاد وَقَدْ كَانَ يَتِيمًا وَتَرَبَّى عَلَى يَدِي وَالِدَ فَارِسٍ وَجَدِّهِ وَعَاشَ فِي مَنْزِلِهِمْ مَعَ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَاَلَّتِي كَانَتْ شَقِيقَةٌ وَالِدُ فَارِسِ

رَأَى فَارِسُ نَفْسَهُ خَارِجَ أَسْوَارِ ذَلِكَ اَلسِّجْنِ وَهُوَ فِي طَرِيقِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ وَلَكِنَّهُ وَسَطَ عَاصِفَةٍ مِنْ اَلْحُرُوبِ وَالْمَعَارِكِ وَالْمَخَاطِرِ وَلَكِنَّهُ فِي ذَلِكَ اَلْحُلْمِ أَحَسَّ بِتَعَبٍ شَدِيدٍ وَبِطُول ذَلِكَ اَلطَّرِيق وَكَأَنَّهُ قَدْ سَارَ دَهْرٌ عَلَى قَدَمَيْهِ وَفِي مُنْتَصَفِ ذَلِكَ اَلطَّرِيقِ وَجَدَ فِي طَرِيقِهِ مُرَادٌ وَلَكِنَّهُ بِحَالٍ غَيْرِ حَالَةِ اَلطَّبِيعَةِ قَدْ جَاءَ عَكْسُ طَرِيقِ فَارِسِ وَقَدْ لَبِسَ لِبَاسًا أَحْمَر وَتَلَوُّنَ جِلْدِهِ وَوَجْهِهِ بِاللَّوْنِ اَلْأَحْمَرِ لَمْ تَخْتَلِفْ مَعَالِمَهُ وَلَكِنَّهُ فَقَدَ شِعْرُهُ وَتَحَوَّلَ ذَلِكَ اَلرَّأْسِ إِلَى اَللَّوْنِ اَلْأَحْمَرِ وَهُوَ يَرْكَبُ دَرَّاجَةً نَارِيَّةً حَمْرَاء وَهُوَ يَأْخُذُ اِتِّجَاهًا مُعَاكِسًا لِطَرِيقِ فَارِسِ

اِسْتَوْقَفَهُ فَارِسُ فِي مُنْتَصَفِ اَلطَّرِيقِ وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَقُومَ بِإِيصَالِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ وَقَدْ خَرَجَ مِنْ اَلسِّجْنِ وَأَتْعَبَهُ طُولَ اَلطَّرِيقِ وَلَمْ يَعُدْ يَقْوَى عَلَى مُتَابَعَةِ اَلْمَسِيرِ فَكَانَ رَدُّ مُرَادٌ لَنْ أَسْتَطِيعَ اَلْعَوْدَةُ لَدَيَّ عَمَلٌ أَقُومُ بِهِ فَتَابِعَ مَسِيرُكَ لِوَحْدِكَ وَلَمْ يَقْبَلْ مُرَادٌ أَنْ يَقُومَ بِإِيصَال فَارِسٍ إِلَى مَنْزِلِهِ فَطَلَبَ مِنْهُ فَارِسُ أَنْ يُرَافِقَهُ إِلَى حَيْثُ هُوَ ذَاهِبٌ وَيَعُودُونَ سَوِيَّةِ فِيمَا بُعْدٌ فَرَفَضَ مُرَادٌ ذَلِكَ وَأَخْبَرَ فَارِسُ أَنَّ عَادَ بَعْدَ أَنْ يُنْهِيَ عَمَلُهُ سَيُرَافِقُ فَارِسَ إِلَى مَنْزِلِهِ وَيَنْطَلِقُ مُرَادٌ بِطْرِيقًا مُعَاكِسًا لِطَرِيقِ عَوْدَةِ فَارِسِ

لَقَدْ أَحَسَّ فَارِسُ أَنَّ لِهَذَا اَلْحُلْمِ تَفْسِير كَبِيرٍ فِي حَيَاتِهِ وَلَكِنَّهُ جَهْلُ مَعْنَاهُ فَهُوَ كَانَ يَهْرُبُ مِنْ مَنَاطِقِ اَلْخَطَرِ وَإِنْ كَانَ يَسِيرُ بِبُطْءٍ وَبِتَعَبٍ شَدِيدٍ وَلَكِنَّ مُرَاد كَانَ بِطَرِيقِهِ إِلَى ذَلِكَ اَلْخَطَرِ اَلْمُحْدِقِ وَالْقَرِيبِ . . .

فَارِس :

أَحَسَّ بِقَلَقٍ شَدِيدٍ لَمْ يَشْعُرْ بِهِ مِنْ قَبْلُ وَلَكِنَّهُ أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ وَحَاوَلَ تَجَاوُزُ ذَلِكَ مُحَاوِلاً إِقْنَاعَ نَفْسِهِ أَنَّهُ مُجَرَّدُ حُلْمٍ وَكَابُوسٍ لَيْسَ أَكْثَر وَفِي اَللَّيْلَةِ اَلتَّالِيَةِ أَغْمَضَ فَارِسُ عَيْنَيْهِ وَقَدْ رَأَى فِي مَنَامِهِ أُمَّهُ قَدْ أَتَتْ إِلَيْهِ إِلَى تِلْكَ اَلزِّنْزَانَةِ وَتَحْمِلُ بِيَدَيْهَا بَعْضَ اَلْأَشْيَاءِ لِفَارِسِ وَقَدْ سَمِعَ صَوْتُهَا يَدَوِيٌّ بِذَلِكَ اَلْمَكَانِ وَرَأَى دُمُوعَهَا قَدْ اِنْهَارَتْ بَعْدَ أَنْ رَأَتْ تِلْكَ اَلْحَالَةِ اَلَّتِي وَصَلَ إِلَيْهَا فَارِسُ وَقَدْ أَخْبَرَتْهُ بِبَعْضِ اَلْأُمُورِ وَاَلَّتِي كَانَتْ تُخْطِرُ بِبَالِهِ وَيَجْهَلُهَا .

اِسْتَفَاقَ فَارِسُ عَلَى ذَلِكَ اَلْحُلْمِ وَهُوَ عَلَى يَقِينٍ أَنَّهُ لَنْ يَسْتَطِيعَ رَأَيْتَ وَالِدَتُهُ وَهُوَ فِي هَذِهِ اَلزِّنْزَانَةِ وَلَمْ تَمْضِ سِوَى ثَلَاثَةِ أَيَّامِ حَتَّى سَمِعَ فَارِسُ صَوْتَ أُمِّهِ يَدَوِيٌّ عَلَى بَابِ ذَلِكَ اَلْبِنَاءِ وَبَعْدَ قَلِيلٍ مِنْ اَلْوَقْتِ يُنَادِي اَلسَّجَّانُ عَلَى فَارِسِ أَنْ يَخْرُجَ وَقَدْ رَأَى أُمَّهُ بَعْدَ ثَلَاثَةِ شُهُورِ مِنْ سِجْنِهِ وَقَدْ تَبَدَّلَ حَالَةَ كَثِيرٍ وَانْهَارَتْ دُمُوعَهُ أَمَامَ أُمِّهِ وَاَلَّتِي بِدَوْرِهَا أَخَذَتْ بِالْبُكَاءِ وَقَدْ كَانَ بِرُفْقَتِهَا أَخُوهُ اَلصَّغِيرُ وَاَلَّذِي لَطَالَمَا أُحِبُّهُ فَارِسَ وَقَدْ كَبُرَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَمَامَ عَيْنَيْهِ فَكَانَ شَيْئًا مِنْ رُوحِهِ وَأَنْفَاسُهُ

لَمْ تَكُنْ مُدَّةُ بَقَاءِ أُمِّهِ طَوِيلَةً فَقَدَ أَخْذُ يَسْأَلُهَا عَنْ أَحْوَالِهِمْ وَأَخَذَتْ تَسْأَلُهُ عَنْ حَالَةٍ وَقَصَّتْ عَلَيْهِ حِكَايَةُ مَوْتِ مُرَادٍ وَالَّذِي قَدْ رَآهُ فِي اَلْحُلْمِ مُنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ.

لَقَدْ مَاتَ حَرْقُ وَهُوَ عَلَى قَيْدِ اَلْحَيَاةِ بَعْدَ أَنْ اِسْتَشَاطَ غَضَبًا وَأَخَذَتْهُ اَلْحِمْيَةُ بَعْدَ سَمَاعِ صَوْتِ اِسْتِجَارَةِ نِسَاءِ أَحَدِ جِيرَانِهِ وَقَدْ حَاوَلَ اَلِاعْتِدَاءُ عَلَيْهَا بَعْضِ اَلْمُرْتَزِقَةِ مِمَّنْ يَدْعُونَ حِمَايَةُ اَلْوَطَنِ وَيَعْمَلُونَ عَلَى تَطْبِيقِ تِلْكَ اَلْقَوَانِينِ اَلْمُزَيَّفَةِ وَالَّتِي تَخْدِمُ مَصَالِحَهُمْ وَتُحَافِظُ عَلَى نُفُوذِهِمْ وَقَدْ اِتَّصَفُوا بِتِلْكَ اَلصِّفَاتِ اَلرَّسْمِيَّةِ وَالَّتِي جَرَّدَتْهَا مِنْهُمْ تِلْكَ اَلْحَنَاجِرِ وَالْأَرْوَاحِ اَلْمُتَمَرِّدَةِ وَالَّتِي صَدَحَتْ بِالْحُرِّيَّةِ وَتَمَرَّدَتْ عَلَى اَلظُّلْمِ وَالظَّالِمِينَ .

صَمْتُ فَارِسِ لِبُرْهَةِ وَتَذَكَّرَ ذَلِكَ اَلْحُلْمِ وَأَيْقَنَ أَنَّ مُرَاد قَدْ كَانَ ذَاهِبًا إِلَى حَتْفِهِ وَأَيْقَنَ أَيْضًا أَنَّ طَرِيقَهُ فِي تِلْكَ اَلزِّنْزَانَةِ مَا زَالَتْ طَوِيلَةً وَمُتْعَبَةً.

اَلْأُمُّ:

هَلْ عَرَفَتْ مَنْ كَانَ وَرَاءَ سِجْنِكَ وَوُصُولِكَ إِلَى هَذَا ا اَلْحَالِ هَلْ عَرَفَتْ مِنْ وَشَى عَلَيْكَ وَطَعْنِكَ فِي ظَهْرِكَ.؟

فَارِسُ:

لَا لَمْ أَعْرِفْ يَا أُمِّي

اَلْأُمَّ:

إِنَّهُ صُهَيْبْ يا بُنَيَّ هُوَ مِنْ وَشَى عَلَيْكَ وَأَوْصَلَكَ إِلَى هَذِهِ اَلْحَالَةِ.

لَمْ يُصَدِّقْ فَارِسُ ذَلِكَ فَتِلْكَ تُهْمَةٌ كَبِيرَةٌ بِحَقِّ صَدِيقِهِ وَاَلَّذِي طَالَمَا جَالَسَهُ وَأَفْشَى لَهُ أَسْرَارِهِ وَفَتْحٍ لَهُ قَلْبِهِ وَبَيْتِهِ.

فَارِسٌ:

وَكَيْفَ عَرَفْتُمْ بِذَلِكَ يَا أُمِّي

اَلْأُمَّ:

لَقَدْ اِسْتَطَعْنَا أَنْ نَعْرِفَ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِ اَلشَّخْصِ اَلَّذِي أَوْصَلَنَا إِلَيْكَ اَلْيَوْمَ وَسُمِحَ لَنَا بِزِيَارَتِكَ لَقَدْ بَذَلْنَا اَلْكَثِيرُ مِنْ اَلْمَالِ لِنَصِلَ إِلَيْكَ وَلِنُطَمْئِن عَلَى حَالِكٍ وَقَدْ عَرَفْنَا أَيْضًا عَنْ طَرِيقِهِ مَنْ كَانَ وَرَاءَ سِجْنِكَ وَوُصُولِكَ إِلَى هَذِهِ اَلْحَالِ.

لَقَدْ كَانَتْ صَدْمَةُ فَارِسِ كَبِيرَةً لَمْ يَعْتَقِدْ يَوْمُ أَنْ تَكُونَ أَقْوَى اَلضَّرَبَاتِ وَأَقْسَاهَا فِي حَيَاتِهِ مِنْ أَحَدِ أَصْدِقَائِهِ وَاَلَّذِي لَمْ يَكُنْ يَوْمًا عَلَى خِلَافِ مَعَهُ وَلَكِنَّهُ أَخَذَ يَتَسَاءَلُ عَنْ اَلسَّبَبِ اَلَّذِي دَفَعَ صُهَيْبْ لِذَلِكَ

وَلَكِنَّهُ لَمْ يَجِدْ أَيُّ أَجَابَهُ فَتَبَادَرَ إِلَى ذِهْنِهِ تِلْكَ اَلْمَقُولَةِ

(مِنْ ضَيَّعَ اَلْأَمَانَةَ وَرَضِيَ بِالْخِيَانَةِ فَقَدْ تَبَرَّأَ مِنْ اَلدِّيَانَةِ)

كَانَ ذَلِكَ اَلْيَوْمِ يَحْمِلُ عَدِيدُ اَلْمَشَاعِرِ وَالتَّنَاقُضَاتِ فَلِقَاءِ أُمِّهِ وَأَخِيهِ اَلصَّغِيرِ قَدْ أَفْرَحَهُ وَجَدَّدَ اَلْأَمَلُ فِي نَفْسِهِ وَمَنْحِهِ مَزِيد مِنْ اَلْقُوَّةِ وَالْإِصْرَارِ وَالصَّبْرِ وَالتَّحَمُّلِ وَلَكِنَّهُ أَيْضًا قَدْ أَحْزَنَهُ وَاتْعَبْ تَفْكِيرَهُ فَلَقَدْ أَخَذَ يَحِنْ إِلَى تِلْكَ اَلْأَيَّامِ اَلَّتِي جَمَعَتْهُ مَعَ وَلِيدْ وَأَحْزَنَهُ أَيْضًا فِرَاقَ وَلِيدْ لِعَائِلَتِهِ فَهُوَ أَبٌ لِثَلَاثَةِ أَطْفَالٍ سَيُعَانُونَ كَثِيرًا بِغِيَابِهِ وَعَلَى فِرَاقِهِ

وَأَخَذَ ذَلِكَ اَلْحُلْمِ يَخْطُرُ فِي بَالِهِ دَائِمًا وَأَيْضًا لَمْ يَغِبْ عَنْ بَالِهِ صُهَيْبْ وَأَخْذُ يَسْتَعِيدُ تِلْكَ اَلذِّكْرَيَاتِ اَلَّتِي جَمَعَتْهُ بِهِ وَهَلْ بَدَرَ مِنْهُ أَيْ أَسَاءه لِصُهَيْبْ أَوْ ضَرَرٍ لِكَيْ يَفْعَلَ مَا فَعَلَهُ وَطَعَنَهُ فِي ظَهْرِهِ وَمِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى أَخْذ يُفَكِّرُ بِالِانْتِقَامِ مِنْهُ وَطَرِيقَةُ ذَلِكَ اَلِانْتِقَامِ لِأَنَّهُ يَسْتَحِقُّ كُلُّ أَنْوَاعِ اَلْعَذَابِ وَالْعِقَابِ.

حَاوَلَ فَارِسُ تَجَاوُزَ كُلِّ تِلْكَ اَلْأُمُورِ لِأَنَّهُ لَا يَزَالُ مُكَبَّلَ اَلْيَدَيْنِ لَا يَمْلِكُ قُوَّةً وَلَا يَعْلَمُ مَا تُخَبِّئُهُ لَهُ اَلْأَيَّامُ.

وَأَخَذَتْ اَلْأَيَّامُ تَمْضِي بِثِقْلٍ كَبِيرٍ وَأَخَذَتْ تِلْكَ اَلْأَجْسَامِ تَهْزِلُ وَيُضْنِيهَا اَلتَّعَب وَالْمَرَضِ وَقِلَّةِ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى اَلْهَوَاءِ.

وَفِي بِدَايَةِ ذَلِكَ اَلْيَوْمِ مِنْ شِتَاءِ تِلْكَ اَلسَّنَةِ وَحَيْثُ اِشْتَدَّ بَرْدِّهَا وَقَلَّ دِفْئِهَا وَكَثُرَتْ أَحْزَانُ تِلْكَ اَلنُّفُوسِ وَتِلْكَ اَلْوُجُوهُ اَلْقَابِعَةُ فِي ذَلِكَ اَلْمَكَانِ اَلْمَشْؤُومِ، اَلْمُنْتَظَرَةِ وَالنَّاظِرَةُ إِلَى اَلْمَجْهُولِ، اَلْمُرْتَقَبَةِ بِحُرْقَةٍ وَأَمَلَ أَيَّ شَخْصٍ قَادِمٍ مِنْ اَلْخَارِجِ يُحَدِّثُهُمْ وَلَوْ بِشَيْءٍ يَسِيرُ

طُرُقَ ذَلِكَ اَلْبَابِ وَفَتْحِ اَلسَّجَّانِ تِلْكَ اَلنَّافِذَةِ اَلصَّغِيرَةِ اَلَّتِي تَتَوَسَّطُ ذَلِكَ اَلْبَابِ اَلْأَسْوَدِ اَلْمُثْقَلِ بِالْحَدِيدِ اَلْمُدَجَّجِ بِكُلِّ أَنْوَاعِ اَلْحِمَايَةِ اَلْمَلِيءِ بِالْحِقْدِ كَحِقْدِ تِلْكَ اَلنُّفُوسِ اَلْقَابِعَةِ خَلَفَهُ وَالَّتِي تَقُومُ عَلَى حِرَاسَتِهِ.

وَهُنَا عَمُّ اَلصَّمْتِ وَأَخَذَتْ تِلْكَ اَلْوُجُوهِ اَلشَّاحِبَةِ تَنَاظُرِ وَتَنْتَظِرُ مَا يَحْمِلُ ذَلِكَ اَلْجَلَّادِ فِي جَعْبَتِهِ وَمَا سَتَنْطِقُ بِهِ شِفَاهُهُ.

كَانَ هُنَاكَ خَوْفٌ كَبِيرٌ لَدَى اَلْجَمِيعِ وَكَأَنَّهُ اَلشُّعُورُ بِأَنَّ اَلْأَسْوَأَ قَادِمًا لَا مَحَالَةً وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يَجْهَلُونَ مَا تُخَبِّئُ لَهُمْ تِلْكَ اَلْأَيَّامِ.

اَلسَّجَّانُ:

عَلَى اَلْجَمِيعِ اَلصَّمْتِ وَسَمَاعِ هَذِهِ اَلْقَائِمَةِ وَكُلِّ شَخْصٍ يَسْمَعُ اِسْمُهُ عَلَيْهِ اَلْإِجَابَةُ بِحَاضِرِ وَتَجْهِيزِ نَفْسِهِ لِلْخُرُوجِ.

اَلْكُلَّ فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِ.

صَمْتٌ غَرِيبٌ وَمَشَاعِرُ تَمْتَزِجُ مَا بَيْنَ اَلْخَوْفِ وَالْأَمَلِ.

بَدْءُ اَلسَّجَّانِ بِذِكْرِ تِلْكَ اَلْأَسْمَاءِ وَقَدْ ضَمَّتْ تَلَّ اَلْقَائِمَةِ **65** اِسْمًا وَلَكِنَّهُ لَمْ يَنْطِقْ بِأَيِّ كَلِمَةٍ أُخْرَى.

طَلَبُ مِنْ اَلْجَمِيعِ تَجْهِيزَ أَنْفُسِهِمْ لِمُغَادَرَةِ اَلْمَكَانِ.

بَدَأَ فَارِسُ يَسْمَعُ تِلْكَ اَلْهَمَسَاتِ وَيَشْعُرُ بِتِلْكَ اَلضَّوْضَاءِ فِي نَفْسِهِ قَبْلَ تِلْكَ اَلزِّنْزَانَةِ لَا أَحَدَ يَدْرِي بِشَيْءٍ وَالْكُلِّ يَتَسَاءَلُ وَالْخَوْفُ بَادٍ عَلَى تِلْكَ اَلْوُجُوهِ أَيْ آسَى وَايْ بَابٍ سَيَفْتَحُ لَا أَعْلَمُ عِنْدَمَا يَحْكُمُكَ اَلْمَجْهُولُ وَتُصْبِح أَسِيرَةً وَيَعْجِزُ لِسَانُكَ عَنْ اَلنُّطْقِ وَتَعْجِزُ قَدَمَاكَ عَنْ نَقْلِكَ إِلَى ذَلِكَ اَلْمَكَانِ اَلَّذِي تُحِبُّ.

تُصْبِح تِلْكَ اَلْأَنْفَاسِ لَا قِيمَةً لَهَا وَتُصْبِحُ تِلْكَ اَلْأَسْمَاءِ مُجَرَّدُ أَرْقَامِ فَقَطْ.

تَحَفُّظُهَا رَغْمَ عَنْكَ وَتُصْبِح نَذِير شُؤْمِ طِيلَةِ أَيَّامِ حَيَاتِكَ.

كَانَ ذَاكَ اَلْيَوْمِ هُوَ اَلْوَاحِدُ وَالثَّلَاثُونَ مِنْ تِشْرِينَ اَلثَّانِي وَقَدْ مَضَى عَلَى عِيدِ اَلْأَضْحَى مِنْ تِلْكَ اَلسَّنَةِ مَا يُقَارِبُ اَلْأُسْبُوعَيْنِ.

وَلَمْ تَمْضِ سِوَى سَاعَتَيْنِ حَتَّى جَاءَتْ تِلْكَ اَلسَّيَّارَةِ اَلْكَبِيرَةِ وَالَّتِي لَمْ يَسْمَعْ سِوَى صَوْتِهَا وَقَدْ اِصْطَفَّتْ دَاخِلَ ذَلِكَ اَلْبِنَاءِ وَقَدْ طَرَقَ اَلْبَابُ لِتَحْذِيرِ اَلْقَرِيبِينَ مِنْهُ وَلِكَيْ يَأْخُذَ اَلْجَمِيعُ تِلْكَ اَلْوَضْعِيَّةِ اَلْمُهِينَةِ وَتَلْتَفِتُ اَلْعُيُونَ عَكْسَ اِتِّجَاهِ ذَلِكَ اَلْبَابِ اَللَّعِينِ.

وَبدَأَ اَلسَّجَّانُونَ بِمُنَادَاةِ تِلْكَ اَلْأَسْمَاءِ مَرَّةً أُخْرَى وَكُلُّ شَخْصٍ يَسْمَعُ اِسْمُهُ يَخْرُجُ مِنْ ذَلِكَ اَلْبَابِ لِيَتِمَّ تَقْيِيدَ يَدَيْهِ وَتُغَطِّيهُ عَيْنَاهُ بِذَلِكَ اَلغِطَاءِ اَلْأَسْوَدِ وَاَلَّذِي تَفُوحُ مِنْهُ رَائِحَةَ اَلْمَوْتِ وَالدِّمَاءِ.

لَمْ يَمْضِ سِوَى اَلْقَلِيلِ مِنْ اَلْوَقْتِ حَتَّى تَمَّ تَجْهِيزُ تِلْكَ اَلْقَافِلَةِ وَرَبْطِهَا بِجَنَازِيرَ كَبِيرَةٍ مَحْكَمَةِ اَلْإِغْلَاقِ وَأَخْذِ اَلسَّجَّانِينَ بِجَرِّ تِلْكَ اَلْأَجْسَامِ اَلنَّحِيلَةِ اَلْمُكَبَّلَةِ بِالْأَصْفَادِ وَزَجَّهَا بِتِلْكَ اَلسَّيَّارَةِ اَلْكَبِيرَةِ وَاَلَّتِي أَغْلَقَ بَابُهَا وَأَخَذَتْ تَطْوِي اَلْمَسَافَاتُ وَتُسَابِقُ اَلرِّيحُ وَقَدْ كَانَ فَارِسُ قَدْ أَضْنَاهُ اَلتَّعَبُ فَأَخَذَ بِالْجُلُوسِ وَتَأْمُلُ ذَلِكَ اَلظَّلَامِ ؛ ظَلَامَ اَلنُّفُوسِ وَظَلَامِ تِلْكَ اَلدُّنْيَا فِي عَيْنَيْهِ وَعُيُونٌ مِنْ يُرَافِقُهُ

مُضِيُّ مَا يُقَارِبُ اَلسَّاعَتَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ وَقَدْ أَخَذَتْ اَلشَّمْسُ بِالْمَغِيبِ أَوْ ذَلِكَ مَا كَانَ يَشْعُرُ بِهِ فَارِسُ وَمِنْ مَعَهُ وَقَدْ حَطَّتْ تِلْكَ اَلْقَافِلَةِ رِحَالَهَا فِي ذَلِكَ اَلْبِنَاءِ اَلْمَشْؤُومِ وَاَلَّذِي قَدْ اِسْتَقْبَلَتْ فِيهِ تِلْكَ اَلْأَجْسَامِ اَلنَّحِيلَةَ بِالضَّرْبِ وَالْعِقَابِ وَالْإِهَانَةِ بِأَبْشَعِ اَلطُّرُقِ.

وَبَعْدُ بَعْضِ اَلْوَقْتِ تَمَّ رَمْيُهُمْ فِي زِنْزَانَةٍ صَغِيرَةٍ لَا تَزِيدُ مِسَاحَتَهَا عَنْ عَشَرَةِ أَمْتَارِ وَهْمِ عَدَدِهِمْ خَمْس وَسِتُّونَ.

وَكَانَ ذَلِكَ اَلْبِنَاءِ تَحْتَ اَلْأَرْضِ لَا يُنِيرُهُ سِوَى ذَلِكَ اَلْمِصْبَاحِ اَلْعَالِي وَلَا يُجَدِّدُ هَوَاؤُهُ سِوَى ذَلِكَ اَلْجِهَازِ اَلْكَبِيرِ وَاَلَّذِي عَلَا صَوْتُهُ وَارْتَفَعَ فِي أَعْلَى اَلْبِنَاءِ.

بَدَأَ اَلتَّعَبُ وَالْيَأْسُ عَلَى اَلْجَمِيعِ كَانَ يَوْمًا عَصِيبًا وَلَكِنَّ اَلْقَادِمَ أَصْعَبَ وَأَقْسَى بِكَثِيرٍ.

كَانَتْ تِلْكَ اَلزِّنْزَانَةِ مِنْ أَقْسَى مَا رَأَى فَارِسُ وَرِفَاقهُ وَقَدْ اِرْتَفعَت رُطُوبَتُهَا وَضَاقَتْ مِسَاحَتُهَا وَلَمْ تَكُنْ تَكْفِي إِلَّا لِوُقُوفِهِمْ وَكَانَ فِي زَاوِيَةِ تِلْكَ اَلزِّنْزَانَةِ حُجْرَةً صَغِيرَةً لِقَضَاءِ اَلْحَاجَةِ وَيَتَوَسَّطُ جِدَارُهَا صُنْبُورَ مَاءٍ لِلشُّرْبِ وَغَسْلِ تِلْكَ اَلْأَجْسَامِ اَلْمُرْهَقَةِ.

وَفِي اَلزِّنْزَانَاتِ اَلْمُجَاوِرِ كَانُوا يَسْمَعُونَ أَحْيَانًا تَمْتَمَاتِ وَهَمَسَاتِ بُؤَسَاءِ آخَرِينَ وَلَا يُخْرِسهَا سَوَّى سَمَاعُ تِلْكَ اَلْأَقْدَامِ اَلَّتِي تَجُولُ فِي اَلْخَارِجِ وَهِيَ إِقْدَامُ أُولَئِكَ اَلْجَلَّادِينَ وَاَلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ لِأَيِّ صَوْتٍ لِيَسْتَشِيطُوا غَضَبًا وَيَنْزِلُونَ بَاوْلَائِكْ اَلْبُؤَسَاءُ أَقْسَى أَنْوَاعَ اَلضَّرْبِ وَالْعِقَابِ وَالشَّتَائِمِ وَاَلَّذِينَ لَمْ يَكُونُوا بِالْأَصْلِ بِحَاجَةِ إِلَى تِلْكَ اَلذَّرَائِعِ لِصَبِّ جَامِ غَضَبِهِمْ عَلَى اَلْجَمِيعِ .

كَانَ اَلْجَمِيعُ يُعَانُونَ مِنْ عُقُوبَاتٍ جَمَاعِيَّةٍ يَوْمِيَّةٍ تُنْهِكُ اَلْقُوَى وَتُتْلِفُ تِلْكَ اَلْأَعْصَابِ وَلَمْ تَكُنْ تَتَوَفَّرُ أَبْسَطَ أَنْوَاعِ اَلْحَيَاةِ أَوْ اَلنَّظَافَةِ أَوْ حَتَّى طَعَامٍ لِيَسُدَّ جُوعَ هَؤُلَاءِ البؤساء وَكَأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ إِنْهَاكُهُمْ وَالْقَضَاءُ عَلَيْهِمْ بِبُطْءِ شَدِيدٍ أَوْ دَفْعِهِمْ لِلِاسْتِسْلَامِ وَفِقْدَانِ اَلْأَمَلِ مِنْ تِلْكَ اَلْحَيَاةِ اَلْقَاسِيَةِ أَخَذَتْ اَلْأَيَّامُ تَمْضِي بِثِقْلٍ أَحَسَّ بِهِ اَلْجَمِيعُ وَأَخَذَتْ تِلْكَ اَلْأَجْسَامِ تُلَاحِقُهَا اَلْأَمْرَاضُ وَالنَّدَبَاتُ وَالْجُرُوحُ وَلَمْ يَكُنْ يَمُرُّ يَوْم دُونَ تِلْكَ اَلْإِهَانَاتِ وَتِلْكَ اَلْعُقُوبَاتُ اَلنَّفْسِيَّةُ وَالْجَسَدِيَّةُ حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ اَلْعِظَامِ تَتَكَسَّرُ وَتِلْكَ اَلْجَمَاجِمُ تَتَحَطَّمُ وَتِلْكَ اَلدِّمَاءُ تَسِيلُ لِتُخْفِيَ مَعَالِمَ تِلْكَ اَلْوُجُوهِ وَتِلْكَ اَلْأَجْسَامُ اَلْعَارِيَةُ .

لَمْ يَمْضِ وَقْتٌ طَوِيلٌ حَتَّى أُصِيبَ فَارِسُ بِمَرَضٍ شَدِيدٍ اِسْتَنْزَفَ قُوَاهُ وَهَزْلِ جِسْمِهِ وَبَدَأَ يَنْزِفُ دِمَاءَ قَدْ اِخْتَلَطَتْ بِتَعَبِ اَلْأَيَّامِ وَمَرَارَتِهَا.

كَانَ لِتِلْكَ اَلزِّنْزَانَةِ طَبِيعَةً مُخِيفَةً فَلَا أَحَدَ يَدْخُلُ مِنْهَا وَلَا أَحَدَ يَخْرُجُ لَا تَعْلَمُ بِأَيِّ شَيْءٍ خَارِجَ ذَلِكَ اَلْبَابِ وَلَا تَسْتَطِيعُ رَفْعَ رَأْسِكَ أَوْ اَلنَّظَرِ فِي تِلْكَ اَلْوُجُوهِ اَلَّتِي تَحْرُسكَ أَوْ حَتَّى اَلنَّظرِ فِي تِلْكَ اَلنَّافِذَةِ اَلصَّغِيرَةِ لِأَنَّهَا قَدْ تَكُونُ آخِرُ نَظْرَةٍ فِي حَيَاتِكَ وَكَأَنَّهَا قَدْ خَلَقَتْ مِنْ اَلْجَحِيمِ.

رَائِحَةُ اَلْمَوْتِ وَالدِّمَاءِ تَمْلَأُ كُلَّ مَكَانِ

دَائِمًا مَا كُنَّا نَسْمَعُ بِأَبْوَابٍ تَفْتَحُ وَأَصْوَاتٌ تَعْلُو مِنْ اَلْأَلَمِ وَالصُّرَاخِ وَفِي أَحْيَانٍ أُخْرَى تُخْرِسُ تِلْكَ اَلْحَنَاجِرِ فِي مُنْتَصَفِ ذَلِكَ اَلصُّرَاخِ لِتَغَيُّبِ مَعَالِمِ اَلْحَيَاةِ عَنْهَا وَتَخْتَفِي تِلْكَ اَلْأَصْوَاتِ بِلَا عَوْدَةٍ.

صَمْتٌ رَهِيبٌ يُخَيِّمُ عَلَى ذَلِكَ اَلْبِنَاءِ أَنَّهُ اَلْخَوْفُ مِنْ اَلْقَادِمِ؛ اَلْخَوْفِ مِنْ أَنْ تَكُونَ أَنْتَ اَلشَّخْصُ اَلتَّالِي أَوْ أَنْ تَسْقُطَ مُسْتَغِيثًا لَا تَقْوَى عَلَى اَلْحَرَكَةِ مِنْ شِدَّةِ اَلْمَرَضِ وَالْأَلَمِ فَتُدْفَن حَيًّا كَمَا سَبَقَكَ اَلْكَثِيرُ وَأَصْبَحَ مُجَرَّدَ أَرْقَامِ لَا مَعْنَى لَهَا وَلَا وُجُود.

وَمَعَ مُرُورِ كُلِّ يَوْمٍ مَعَ كُلِّ ذَلِكَ اَلْخَوْفِ اَلْفَظِيعِ وَالصَّمْتِ اَلرَّهِيبِ وَمَعَ كُلِّ تِلْكَ اَلْجَرَّاحِ اَلنَّازِفَةِ وَتِلْكَ اَلدُّمُوعُ وَالَّتِي لَا يُفَارِقُهَا اَلْأَمَلُ كَانَ هُنَاكَ شَبَحًا يُطَارِدُ اَلْجَمِيعُ وَيَقْتَرِبُ مِنْهُمْ كُلَّ يَوْمٍ أَنَّهُ اَلْمَوْتُ لَمْ أَشْعُرْ لِأَيِّ لَحْظَةِ أَنَّهُ فَارَقَ ذَلِكَ اَلْمَكَانِ وَكَأَنَّهُ قَدْ اِسْتَوْطَنَ فِي جَنَبَاتِ ذَلِكَ اَلْبِنَاءِ المشؤوم يَحْسُبَ أَنْفَاسَ مِنْ سَيَأْخُذُهُمْ بِلَا عَوْدَةٍ.

أَصْبَحَتْ تِلْكَ اَلنُّفُوسِ مُثْقَلَةً بِكُلِّ أَنْوَاعِ اَلْأَسَى وَالْأَلَمِ وَالذُّلِّ وَأَصْبَحَتْ مُنْهَكَةً لَمْ تَقْوَ عَلَى مُتَابَعَةِ ذَلِكَ اَلطَّرِيقِ وَأَصْبَحَتْ أَرَى تِلْكَ اَلنَّظَرَاتِ فِي عُيُونِ بَعْضُهُمْ وَكَأَنَّهَا نَظَرَاتُ اَلِاسْتِسْلَامِ أَوْ اَلْوَدَاعِ

. . .

كَانَ ممدوح مِمَّنْ رَافَقَنِي مُنْذُ بِدَايَةِ اَلطَّرِيقِ وَكَانَ رَفِيقِي فِي كُلِّ تِلْكَ اَلتَّنَقُّلَاتِ نَتَشَارَكُ ذَلِكَ اَلْأَلَمِ وَذَلِكَ اَلْحُلْمُ حَدَّثَنِي عَنْ أُسْرَتِهِ وَعَنْ أَطْفَالِهِ وَعَنْ تِلْكَ اَلْمَأْسَاةِ اَلْقَابِعَةِ خَارِجَ أَسْوَارِ ذَلِكَ اَلسِّجْنِ دَائِمًا مَا كُنْتُ أَرَى ذَلِكَ اَلْحُزْنِ فِي عَيْنَيْهِ وَلَكِنِّي أَجْهَل سَبَبُهَا.

رُبَّمَا أَرَادَ أَنْ يُزِيحَ ذَلِكَ اَلثِّقْلِ اَلْقَابِعِ عَلَى صَدْرِهِ وَذَلِكَ اَلْحُزْنُ اَلَّذِي يَسْتَوْطِنُ بَيْنَ ثَنَايَاهُ.

حَدَّثَنِي عَنْ أَطْفَالِهِ اَلِاثْنَيْنِ وَاَلَّذِينَ يُعَانُونَ مِنْ مَرض (اَللُّوكِيمْيَا)

هُمْ أَطْفَالٌ فِي مَطْلَعِ اَلْعُمْرِ وَلَكِنَّهُمْ قَدْ أَحَسُّوا بِذَلِكَ اَلْأَسَى وَرُبَّمَا اِخْتَارُوا طَرِيقُ اَلْوَدَاعِ وَمُفَارَقَةِ أَهْلُهُمْ عَلَى تِلْكَ اَلفِطْرَةِ اَلْجَمِيلَةِ وَاَلَّتِي كَثِيرًا مَا نَفْتَقِدُهَا نَحْنُ بَنُو اَلْبَشَرِ مَعَ مُرُورِ اَلْوَقْتِ وَكَبُرَ اَلْعُمْرُ.

رَأَيْتُهُ يَبْكِي وَتِلْكَ اَلدُّمُوعُ تَنْهَارُ مِنْ عَيْنَيْهِ يَبْكِي بِحُرْقَةٍ لَمْ أَعْهَدْهَا مِنْ قَبْلُ أَوْ رُبَّمَا لَمْ أَكُنْ أَرَاهَا

كُنْتَ أُعَانِي مِنْ مَرَضِ مُنْذُ مَا يُقَارِبُ اَلشَّهْرَانِ مَرَضًا أَتْعبَنِي وَلَمْ أَعُدْ أَقْوَى عَلَى شَيْءِ حَتَّى اَلنَّوْمِ.

كُنْتَ أَسْقَطَ نَائِمًا لِفَتَرَاتٍ قَصِيرَةٍ عِنْدَمَا يُنْهِكُ جِسْمِي اَلتَّعَبُ وَأَنَامُ دُونَ أَنْ أَشْعُرَ بِذَلِكَ؛ لَمْ أَكُنْ أُحِسُّ بِتِلْكَ اَلْغَفَوَاتِ اَلْقَصِيرَةِ وَاَلَّتِي رُبَّمَا كَانَتْ تَمْنَحُنِي بَعْضُ اَلْقُوَّةِ لِمُتَابَعَةِ ذَلِكَ اَلطَّرِيقِ.

كُنْتَ أَرَى تِلْكَ اَلدِّمَاءِ تَسِيلُ مِنْ جِسْمِي وَقَدْ اِخْتَلَطَتْ بِهُمُومِ تِلْكَ اَلسِّنِينَ.

رُبَّمَا هُوَ اَلْإِحْسَاسُ بِمَنْ يُشَارِكُكَ اَلْمُعَانَاةَ أَوْ رُبَّمَا قَدْ يَزِيدُ عَلَيْكَ فَقَدْ يَحْمِلُ هُمُومًا أَكْثَرَ بِكَثِيرٍ مِنْ هُمُومِ تِلْكَ اَلزِّنْزَانَةِ.

عِنْدَمَا رَأَيْتُ ممدوح بِتِلْكَ اَلْحَالَةِ أَحْسَسْتُ بِكُلِّ ذَلِكَ اَلْأَسَى فَاقْتَرَبتْ مِنْهُ وَجَلَستْ بِجَانِبِهِ.

رُبَّمَا لِيَمْنَحِنِي اَلْقُوَّةَ وَامْنَحْهُ اَلْمُوَاسَاةَ وَرُبَّمَا لِنَتَشَارَك اَلْأَلَمَ وَنَجْتَمِعُ عَلَى ذَلِكَ اَلْأَمَلِ وَالْحُلْمِ اَلَّذِي لَا مَجَالَ لِتَرْكِهِ وَالِاسْتِسْلَامِ لَهُ.

فَارِسٌ:

كَيْفَ حَالُكَ يَا مَمْدُوحْ؟

هَلْ أَنْتَ بِخَيْرِ لَمٍّ أَعْهَدكُ بِهَذِهِ اَلْحَالِ دَائِمًا مَا كُنْتُ أَرَى اِبْتِسَامَتُكَ حَتَّى بِأَصْعَبِ اَلْأَوْقَاتِ أَخْبَرَنِي هَلَّلَ تُعَانِي مِنْ شَيْءٍ؟

مَمْدُوحْ:

نَعَمْ يَا صَدِيقِي قَلْبِيٌّ يَحْتَرِقُ عَلَى أَطْفَالِي لَمْ أَرَهُمْ مُنْذُ سِتَّةِ شُهُورٍ وَلَا أَدْرِي بِحَالِهِمْ هَلْ يَتَلَقَّوْنَ اَلْعِلَاجُ أَمْ لَا وَهَلْ يَعْتَنُونَ بِهُمْ أَمْ لَا؟

فَارِسٌ:

وَمَا خَطَبَ أَطْفَالُكَ هَلْ يُعَانُونَ مِنْ أَيِّ مَرَضِ

مَمْدُوحْ:

نَعِمَ أَنَّهُمْ يُعَانُونَ مِنْ مَرَضِ اَللُّوكِيمْيَا (سَرَطَانُ اَلدَّمِ) وَهُمْ بِحَاجَةِ إِلَى وَحَدَاتِ دَمٍ جَدِيدَةٍ كُلُّ فَتْرَةٍ قَصِيرَةٍ.

كُنْتَ دَائِمًا اُعْتُنِيَ بِهُمْ وَأُحَاوِلُ أَنْ أَبْذُلَ أَقْصَى جُهْدِي لِأَرَى اِبْتِسَامَتَهُمْ وَاَلَّتِي كَثِيرًا مَا كَانَتْ تَخْتَلِطُ بِالْأَلَمِ.

فَارِسٌ:

يَصْمُتَ لِبُرْهَةٍ وَلَا يَعْلَمُ مَا يُجِيبُ بِهِ وَايْ عَزَاءً سَيَتَكَلَّمُ بِهِ فَلَا شَيْءً يُعْزَى بِهِ ذَلِكَ اَلْأَبِ اَلْأَسِيرِ اَلْقَابِعِ خَلْفَ تِلْكَ اَلْقُضْبَانِ

فَارِس:

لَا بَأْسَ يَا مَمْدُوحْ أَقْرِبَائِكَ وَإِخْوَانِكَ وَأَهْلِكَ لَنْ يَسْتَغْنُوا عَنْ أَطْفَالِهِمْ وَلَا عَنْكَ نَحْنُ بِحَاجَةِ إِلَى اَلصَّبْرِ فَقَطْ تِلْكَ اَلْقُيُودِ حَتْمًا سَتَنْكَسِرُ وَلَنْ تَسْتَمِرَّ وَكَيْفَ لِشَمْس ظَالِمٍ أَنْ تَبْقَى وَتَنْتَصِرُ

مَمْدُوحْ:

صَدِّقِينِي يَا فَارِسُ لَمْ أَعُدْ أَسْتَطِيعُ اَلتَّحَمُّلُ لَقَدْ مَلِلْتُ اَلْحَيَاةُ وَمَلَّتْ مَنِي.

دَائِمًا مَا كُنْتُ أَرَى تِلْكَ اَلْوُجُوهِ وَتِلْكَ اَلْعُيُون تَفَقَّدَ بَرِيقُهَا يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ وَكَأَنَّهَا تَقْتَرِبُ مِنْ اَلِاسْتِسْلَامِ وَرَفَعَ تِلْكَ اَلرَّايَةِ.

اِسْتَفْحَلَ اَلْمَرَضُ بِالْكَثِيرِ مِنْهُمْ وَأَصْبَحَ يَحْسُبُ عَلَيْهِمْ أَنْفَاسُهُمْ وَلَحَظَاتُهُمْ.

كَثِيرًا مَا كُنَّا نَحْسُدُ مِنْ يَسْقُطُ مَيِّتٌ لِأَنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ فَارَقَ هَذِهِ اَلدُّنْيَا اَلْفَانِيَةِ وَتَرْكِ كُلِّ تِلْكَ اَلظُّلُمَاتِ خَلَفَهُ.

لِأَنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ اِسْتَطَاعَ تَكْسِيرُ هَذِهِ اَلْقُيُودِ وَأَنَّهُ ذَاهِبٌ إِلَى رَبٍّ كَرِيمٍ وَرَحِيمٍ لَا يَظْلِمُ لَدَيْهِ أَحَدًا وَفِي أَحَدَ تِلْكَ اَلْأَيَّامِ مِنْ صَيْفِ تِلْكَ اَلسَّنَةِ وَبَعْدَ مُرُورِ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ عَلَى اِنْدِلَاعِ تِلْكَ اَلْحَرْبِ اَلظَّالِمَةِ وَالْمَجَازِرِ اَلدَّامِيَةِ وَاَلَّتِي أَذَاقَتْ كُلَّ بَيْتِ مِنْ اَلْآمِهَا وَحَسْرَاتِهَا.

طُرُقُ اَلْبَابِ بِقُوَّةٍ وَفِي وَقْتٍ غَيْرِ تِلْكَ اَلْأَوْقَاتِ اَلَّتِي اِعْتَدْنَا عَلَيْهَا.

وَقَدْ اِعْتَدْنَا عِنْدُ سَمَاعِ تِلْكَ اَلطُّرُقَاتِ اَلنَّظَرِ بِاتِّجَاهِ مُعَاكِسٍ لِاتِّجَاهِ اَلْبَابِ وَالْجُلُوسِ عَلَى اَلرُّكْبَتَيْنِ بِوَضْعَيْهِ اَلْوُقُوفِ بِاسْتِعْدَادٍ.

فَتَحَتْ تِلْكَ اَلنَّافِذَةِ اَلصَّغِيرَةِ لِيَنْظُرَ اَلسَّجَّانُ إِلَيْنَا قَبْلَ فَتْحِ اَلْبَابِ وَلِيَطْمَئِنَّ عَلَى جُلُوسِنَا وَابْتِعَادِنَا عَنْ ذَلِكَ اَلْبَابِ اَللَّعِينِ، رُبَّمَا هُوَ اَلْخَوْفُ مِنْ غَضَبِ هَؤُلَاءِ البؤساء وَتَمَرُّدُهُمْ أَوْ اَلْخَوْفِ مِنْ أَنْ نَرَى تِلْكَ اَلْوُجُوهِ وَنَحْفَظُ مَلَامِحَهَا وَتَفَاصِيلَهَا.

وَبَعْدُ ثَوَانٍ قَلِيلَةٍ فَتْحِ اَلْبَابِ لِيَدْخُلَ شَخْصَانِ لَمْ أَرَهُمْ وَلَكِنِّي كُنْتَ أَسْمَعُ نَبَرَاتُ صَوْتِهِمْ فَأَحَدُهُمْ قَدْ اِعْتَدْنَا عَلَى سَمَاعِ صَوْتِهِ وَلَكِنَّنَا لَمْ نَرَ وَجْهُهُ أَوْ وُجْهَةِ غَيْرِهِ مِنْ اَلْحُرَّاسِ وَكَأَنَّنَا نَعِيشُ مَعَ أَشْبَاحٍ.

وَلَكِنَّ اَلصَّوْتَ اَلْآخَرَ لَمْ نَعْتَدْ عَلَى سَمَاعِهِ.

اَلسَّجَّانُ:

هَذَا هُوَ اَلطَّبِيبُ مَنْ يُعَانِي مِنْ شَيْءٍ فَلِيَتَكَلَّم وَلْيُخْرَجْ إِلَيْنَا.

اَلْكَثِيرَ مِنْهُمْ صَمْتِ خَوْفًا رَغْمَ كُلِّ آلَامِهِ وَلَكِنِّي سَمِعَتْ صَوْتَ نِزَارْ وَهُوَ يَتَكَلَّمُ وَيَقُولُ لَدَيَّ وَرَمٌ فِي عَيْنِي وَأَنَا بِحَاجَةِ إِلَى دَوَاءٍ.

اَلسَّجَّانُ:

تَعَالٍ إِلَى اَلْبَابِ لِيَرَاكَ اَلطَّبِيب

نِزَارْ:

يَخْرُجَ مُسْرِعٌ وَيَمْشِي حَانِي اَلظُّهْرِ عَيْنَيْهِ إِلَى اَلْأَسْفَلِ بَلْ وَكُلَّ جِسْمِهِ إِلَى اَلْأَسْفَلِ هَكَذَا اِعْتَدْنَا عِنْدُ اَلتَّنَقُّلِ أَنْ يَكُونَ رَأْسُكَ وَجِسْمُكَ لِلْأَسْفَلِ ومِنْ يَتَحَرَّكُ فَقَطْ قَدَمَاكَ وَإِذَا اِفْتَقَدَتْ قُوَّتُهَا وَعَجَزَتْ عَنْ اَلْحَرَكَةِ فَأَنْتَ مَيِّتٌ لَا مَحَالَةً أَوْ تُدْفَنَ حَيًّا كَمَنَ سَبْقُكَ.

اَلطَّبِيبُ مُكَلِّمُ نِزَارْ:

مَا هُوَ اِسْمُكَ

نِزَارْ:

يَذْكُرَ اِسْمُهُ بِالْكَامِلِ وَيَطْلُبُ مِنْهُ اَلسَّجَّانُ اَلْعَوْدَةَ إِلَى مَكَانِهِ.

اَلسَّجَّانُ:

هَلْ يُعَانِي أَحَدُكُمْ مِنْ شَيْءٍ

وَلَكِنَّ اَلصَّمْتَ يَعُمُّ وَبُعْد قَلِيلٍ نَسْمَعُ تِلْكَ اَلْبَوَّابَةِ تُغْلِقُ وَتِلْكَ اَلنَّافِذَةُ تُغْلِقُ وَنَعُودُ إِلَى وَضْعِنَا اَلطَّبِيعِيِّ

وَفِي أَحْيَانٍ أُخْرَى تَكُونُ عُقُوبَتَا اَلْجُلُوسِ لِمُدَّةِ سِتِّ سَاعَاتٍ بِهَذِهِ اَلْوَضْعِيَّةِ وَالَّتِي تُنْهِكُ اَلْأَجْسَامُ وَتُتْلِفُ اَلْأَعْصَابُ وَإِذَا فَتَحَ اَلسَّجَّانُ تِلْكَ اَلنَّافِذَةِ وَرَأَى أَحَدُهُمْ بِغَيْرِ هَذِهِ اَلْوَضْعِيَّةِ فَالْعُقُوبَةُ أَشَدُّ وَأَقْسَى

حَيْثُ يَتِمُّ إِخْرَاجُهُ مِنْ اَلزِّنْزَانَةِ لِتَنْهَالَ عَلَيْهِ اَلضَّرَبَاتُ مِنْ كُلِّ اَلْجِهَاتِ وَبِكُلِّ مَا تَحْمِلُ اَلْأَيْدِي. وَفِي كَثِيرٍ مِنْ اَلْأَحْيَانِ كَانَ يَسْقُطُ اَلْكَثِيرُ بَعْدَ مُرُورِ اَلْوَقْتِ بِسَبَبِ تِلْكَ اَلْجَلْسَةِ اَلْقَاسِيَةِ وَالَّتِي تُعَدُّ مِنْ أَشَدِّ أَنْوَاعِ اَلْعِقَابِ وَالَّتِي تُنْهِكُ اَلْأَجْسَادُ وَتُتْلِفُ اَلْأَعْصَابُ وَفِي كَثِيرٍ مِنْ اَلْأَحْيَانِ يَسْقُطُ اَلْبَعْضُ وَيَفْقِدُونَ وَعْيَهُمْ وَتَرْكِيزَهُمْ وَيَخُرُّونَ سَاقِطِينَ.

بُعْدُ قَلِيلٌ اِقْتَرَبَتْ مِنْ نِزَارْ لَأَسَالَهُ مَاذَا فَعُلُوّ لَهُ وَهَلْ قَامَ اَلطَّبِيبُ بِتَشْخِيصِهِ وَأَعْطَاهُ دَوَاءٌ.

كَيْفَ حَالُكَ يَا نِزَارْ؟ هَلْ أَنْتَ بِخَيْرِ

نِزَارْ:

اَلْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالِ وَأَنْتَ يَا فَارِسُ كَيْفَ حَالُكَ وَهَلْ أَنْتَ بِحَالِ جَيِّدَةٍ لَا زِلْتُ تُعَانِي مِنْ اَلْآلَامِ

فَارِسَ:

نَعَمْ يَا أَخِي لَا تُفَارِقُنِي هَذِهِ اَلْآلَامِ وَحَتَّى لَا أَسْتَطِيعُ اَلنَّوْمُ أَوْ اَلْجُلُوسِ، أَحَسَّ أَنَّ كُلَّ قِطْعَةٍ مِنْ جِسْمِي تُؤْلِمُنِي وَكُلَّ أَطْرَافِي أَحَسَّ بِخَدَرٍ شَدِيدٍ يُعْجِزُنِي اَلنَّوْمُ وَالْجُلُوسُ وَمَعَ كُلِّ حَرَكَةٍ أَحَسَّ بِتِلْكَ اَلْجُرُوحِ وَالنَّدَبَاتِ تَنْزِفُ مِنْ اَلْأَلَمِ.

نِزَارْ: شَافَاكْ اَللَّهُ وَعَافَاكَ وَمَنْحَكَ اَلصَّبْرَ وَالْقُوَّةَ.

فَارِسٌ:

شُكْرًا لَكَ يَا نِزَارْ هَلْ أَعْطَاكَ اَلطَّبِيبُ دَوَاءُ

نِزَارْ

لَا لَمْ يُعْطِنِي شَيْئًا وَإِنَّمَا أَخْذٌ يَكْتُبُ اِسْمِي عَلَى وَرَقَةٍ فَقَطْ.

فَارِسٌ:

هَلْ تَعْلَمُ لِمَاذَا

نِزَارْ:

لَا أَعْلَمَ وَلَمْ يُخْبِرُونِي بِشَيْءٍ

كَانَ فَارِسُ يُحَاوِلُ أَنْ يَفْهَمَ تَفَاصِيلَ تِلْكَ اَلْأُمُورِ اَلْبَسِيطَةِ فَهُوَ بِحَاجَةِ اَلدَّوَاءِ اَلَّذِي يُسَاعِدُهُ عَلَى اَلتَّعَافِي وَتَسْكِينِ اَلْأُمَّةِ وَمُتَابَعَةِ اَلطَّرِيقِ وَالصَّبْرِ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ اَلْخُرُوجُ لِلطَّبِيبِ وَمُحَادَثَتِهِ خَوْفًا مِنْ تِلْكَ اَلْعَوَاقِبِ اَلَّتِي يَجْهَلُهَا فَجَمِيعُهُمْ كَانَ يَتَجَنَّبُ اَلْحَدِيثُ وَالِاقْتِرَابُ مِنْهُمْ لِأَنَّكَ لَا تَسْتَطِيعُ تَوَقُّعً رَدَّتْ فِعْلَهُمْ

مَضَتْ تِلْكَ اَللَّيْلَةَ مِنْ حَيَاةِ اَلْجَمِيعِ بِتَرَقُّبِ كَبَقِيَّةِ تِلْكَ اَللَّيَالِي لَا تَخْلُو مِنْ اَلْأَمَلِ وَلَا مِنْ اَلْخَوْفِ وَالْأَلَمِ وَكَانَ أَشَدُّهُمْ فَارِسُ فَهُوَ يَنْظُرُ إِلَى اَلْجَمِيعِ نَائِمُونَ بِحَسْرَةٍ وَهُوَ يَعْجِزُ عَنْ اَلنَّوْمِ وَلَا يَسْتَطِيعُ

فَالْأَلَمُ يَغْزُو كُلُّ جِسْمِهِ وَتِلْكَ اَلتَّقَرُّحَاتُ اَلَّتِي أَصْبَحَتْ أَكْثَرَ اِنْتِشَارًا وَقُوَّةُ تُتْعِبُهُ وَتَزِيدُ مِنْ آلَامِهِ. كَانَ نَوْمُهُ لَا يَزِيدُ عَنْ خَمْسِ عَشْرَةَ دَقِيقَةً (نَوْمٌ مُتَقَطِّعٌ وَقَصِيرٌ لِيَسْتَفِيقَ عَلَى كُلِّ تِلْكَ اَلْأَوْجَاعِ)

وَفِي صَبَاحِ اَلْيَوْمِ اَلتَّالِي طُرُقَ اَلْبَابِ وَتَمَّ نِدَاءَ اِسْمِ نِزَارْ وَاَلَّذِي كُنَّا نَجْهَلُ إِلَى أَيْنَ وُجْهَتُهُ وَطَرِيقُهُ وَهَلْ سَيَعُودُ إِلَيْنَا أَمْ لَا.

خَرَجَ نِزَارْ مُوَدِّعًا لَنَا وَطَالَبَ اَلْعَفْوُ وَالسَّمَاحُ وَالدُّعَاءُ.

وَمَضَتْ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةِ وَإِذْ بِالْبَابِ يَطْرُقُ فِي غَيْرِ أَوْقَاتِهِ وَبُعْدٍ قَلِيلٍ لِيَفْتَحَ اَلْبَابُ لِلَحَظَاتِ وَيُغْلِق بِصَمْتٍ مُخِيفٍ يَعْتَرِي ذَلِكَ اَلْمَكَانِ وَلِنُشَاهِد نِزَارْ وَقَدْ دَخَلَ إِلَيْنَا وَجَلَسَ.

رَأَيْتُ اَلْجَمِيعُ يَجْتَمِعُونَ حَوْلُهُ وِيهَأْنُونَهْ بِالْعَوْدَةِ وَالسَّلَامَةِ.

اِنْتَابَنِي شُعُورٌ غَرِيبٌ فِي تِلْكَ اَللَّحْظَةِ اِخْتَلَطَ فِيهِ اَلْحُزْنُ وَالْفَرَحُ وَحَتَّى بِالْكَادِ اِسْتَطَعْتُ أَنْ أُخْفِيَ تِلْكَ اَلِابْتِسَامَةِ وَالضَّحِكِ وَأَنَا أَتَسَاءَلُ فِي نَفْسِيٍّ أَيْ سَلَامَةُ اَلَّتِي يُهَنِّئُونَهُ بِهَا وَهَلْ تُوجَد فِي هَذَا اَلْمَكَانِ

سَلَامَهُ. وَلَكِنَّ هَذِهِ اَلنَّظْرَةِ تَغَيَّرَتْ وَسَقَطَتْ بِلَا عَوْدَةٍ عِنْدَمَا جَلَسَتْ مَعَ نِزَارْ وَسُمِعَتْ حَدِيثَهُ وَتَفَاصِيلَ مَا حَدَثَ أَثْنَاءَ غِيَابِهِ . . .

لَا تَدْفِنُونِي لَا زِلْتُ عَلَى قَيْدِ اَلْحَيَاةِ

فَارِس:

كَيْفَ حَالُكَ يَا نِزَارْ؟

أَخْبَرَنِي هَلْ أَنْتَ بِخَيْرٍ؟

نِزَارْ:

اَلْحَمْدُ لِلَّهِ لَا زِلْتُ عَلَى قَيْدِ اَلْحَيَاةِ فَارِسِ:

حَدَّثَنِي أَيْنَ كُنْتَ وَمَا اَلَّذِي حَدَثَ بِغِيَابِكَ؟

نِزَارْ:

أَيْ حَدِيثٍ سَأُحَدِّثُكَ بِهِ وَايْ كَلَامٍ أَسْتَطِيعُ قَوْلُهُ رُبَّمَا نَحْنُ هُنَا بِخَيْرِ يَا فَارِسُ عَلَيْكَ اَلتَّجَلُّدُ وَالصَّبْرُ وَالتَّحَمُّلُ إِلَى أَنْ يُبَدِّلَ اَللَّهُ حَالَنَا أَوْ نُوَدِّعَ هَذِهِ اَلْحَيَاةِ إِلَى جِوَارِهِ

فَارِسَ:

أَخْبَرَنِي يَا نِزَارْ مَاذَا حَدَثَ؟

نِزَارْ:

لَقَدْ خَرَجَتْ مِنْ هُنَا مَعَ مَجْمُوعَةِ أَشْخَاصِ مِنْ زِنْزَانَاتٍ أُخْرَى وَقَبْلَ خُرُوجِنَا قُمْنَا بِحَمْلِ بَعْضِ اَلْأَشْخَاصِ مِمَّنْ هُمْ يَلْفِظُونَ أَنْفَاسُهُمْ اَلْأَخِيرَةُ أَوْ مِمَّنْ هُمْ قَدْ مَاتُوا وَأَثَارَ اَلضَّرَبَاتِ وَاضِحَةٌ عَلَيْهِمْ أَوْ مِمَّنْ هُمْ قَدْ مَاتُوا قَهْرًا وَأَلَمًا

فَارِس:

وَإِلَى أَيْنَ ذَهَبْتُمْ

نِزَارْ:

لَقَدْ صَعِدْنَا بِتِلْكَ اَلسَّيَّارَةِ اَللَّعِينَةِ وَاَلَّتِي أَخَذَتْ تَمُرُّ بِطُرُقَاتٍ لَا نَرَاهَا وَلَكِنْ نُحِسُّ بِآلَامِهَا وَأَوْجَاعِهَا وَكَأَنَّهَا قَدْ رَحَّلَتْ مَعَ سُكَّانِهَا وَمِنْ غَادَرَهَا مِنْ أَهْلِهَا.

وَقَدْ كُنْتَ أُرَافِقُ اَلْأَحْيَاءُ وَالْأَمْوَاتِ وَكُنْتَ أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَأَتَأَمَّل تِلْكَ اَلْوُجُوهِ وَاَلَّتِي فَارَقَتْ اَلْحَيَاةُ.

رُبَّمَا أَحْسُدُهُمْ لِأَنَّ كُلَّ تِلْكَ اَلْآلَامِ قَدْ اِنْتَهَت وَفِي لَحَظَاتٍ أُخْرَى أَخَافَ مِنْ اَلْقَادِمِ وَأَجْهَلِهِ.

وَبَعْدُ وُصُولِنَا تَبَيَّنَ لِي أَنَّهَا تِلْكَ اَلْمُسْتَشْفَى اَللَّعِينَةِ وَاَلَّتِي هِيَ مَسْرَحُ لِجَرَائِمِهِمْ وَكَّلَ خَفَايَاهُمْ فَإِلَيْهَا تَنَقُّل اَلْأَمْوَاتِ لِتَأْخُذَ كُلَّ جُثَّةِ رَقْمٍ وَتَدْفِن بِمَقَابِرَ جَمَاعِيَّةٍ لَا نَعْلَمُ عَنْهَا شَيْءٌ أَوْ لِتُدْفَن بَعْض تِلْكَ اَلْأَجْسَامِ اَلنَّحِيلَةِ وَالْهَزْلِيَّةِ وَاَلَّتِي أَضْنَاهَا اَلتَّعَبُ وَالْمَرَضُ حَيَّةٌ قَبْلَ أَنْ تُفَارِقَ أَرْوَاحَهُمْ تِلْكَ اَلْأَجْسَادِ.

وَفِي أَحْيَانٍ أُخْرَى تَقْتُلُ تِلْكَ اَلْأَرْوَاحِ بِبُطْءِ شَدِيدٍ وَبِكُلِّ دَمٍ بَارِدَةٍ وَقُلُوبِ بِلَا رَحْمَةٍ أَوْ شَفَقَةٍ.

لَقَدْ وَضَعُونَا أَنَا وَخَمْسَةُ أَشْخَاصٍ مِمَّنْ لَدَيْهِمْ أَمْرَاضٌ خَفِيفَةٌ وَيَتَمَتَّعُونَ بِقُوَّتِهِمْ فِي زِنْزَانَةِ دَاخِلَ ذَلِكَ اَلْبِنَاءِ فِي تِلْكَ اَلْمُسْتَشْفَى وَقَدْ أَعْطَوْنَا أَكْيَاسًا لِدَفْنِ اَلْمَوْتَى وَطَلَبُوا مِنَّا أَنْ نَقُومَ بِوَضْعِ مَجْمُوعَةٍ كَبِيرَةٍ مِنْ اَلْجُثَثِ وَاَلَّتِي أَتَتْ مِنْ سُجُونٍ مُخْتَلِفَةٍ وَتَمَّ وَضْعُ رَقْمِ عَلَى جِبَاهِ كُلِّ شَخْصِ مِنْهُمْ وَمِنْ ثَمَّ قُمْنَا بِوَضْعِهِمْ بِسَيَّارَةِ دَفْنِ اَلْمَوْتَى لِتَنَقُّلِهِمْ لِمَكَانٍ لَا أَعْلَمُهُ .

وَأَثْنَاءَ قِيَامِي بِذَلِكَ رَأَيْتُ أَحَدُهُمْ مَا زَالَ عَلَى قَيْدِ اَلْحَيَاةِ وَيَأْخُذُ أَنْفَاسَهُ بِصُعُوبَةٍ وَقَدْ أَضْنَاهُ قَسَاوَةَ تِلْكَ اَلسُّجُونِ وَظُلْمِ أُولَئِكَ اَلْجَلَّادِينَ وَهَده اَلتَّعَبُ وَالِانْتِظَارُ.

لَقَدْ أَمْسَكَ يَدِي وَأَحْسَسْتُ بِحَرَارَةِ تِلْكَ اَلْيَدِ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَتَكَلَّمَ وَلَكِنَّ عَيْنَيْهِ تَحَدَّثَتْ بِكُلِّ تِلْكَ اَلْآلَامِ وَكَأَنَّهُ يَقُولُ لِي كَيْفَ تَضَعُنِي فِي هَذَا اَلْكِيسِ وَتُغْلِقُهُ عَلِي وَلَا زِلْتُ أَتَنَفَّسُ لَا زَلَّتْ أُقَارِعَ وَأُصَارِعِ لِلْبَقَاءِ لَا زِلْتُ أَحْيَا عَلَى ذَلِكَ اَلْأَمَلِ.

لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أَتَمَالَكَ نَفْسِيٌّ فَأَخْبَرَتْ أَحَدَهُمْ لَا زَالَ عَلَى قَيْدِ اَلْحَيَاةِ لِيَقْتَرِبَ مِنْهُ وَيُوَسِّعَهُ ضَرْبًا بِتِلْكَ اَلْبُنْدُقِيَّةِ وَيَشْتُمُهُ بِأَقْسَى أَنْوَاعِ اَلشَّتَائِمِ لَقَدْ أَغْمَضَتْ عَيْنِي لَمْ أَسْتَطِعْ فِعْلُ شَيْءٍ أَوْ اَلنَّظَرِ إِلَى ذَلِكَ اَلْمَشْهَدِ لَنْ أَنْسَى هَذِهِ اَللَّحْظَةِ وَبَعْدَ قَلِيلٍ قَالَ لِي إِنَّهُ مَيِّتٌ أَغْلَقَ هَذَا اَلْكِيسِ وَانْقُلْهُ إِلَى هَذِهِ اَلسَّيَّارَةِ وَقَدْ سُمْعَتِهِ يَرْمِينِي بِعَدِيدِ اَلشَّتَائِمِ اَلْقَاسِيَةِ وَالْمَذَلَّةِ

. . .

اِنْتَهَى اَلْأَمْرُ لَا حَدِيث يُقَالُ إِنَّهُ اَلْقَهْرُ (قَهْرُ اَلرِّجَالِ) وَالَّذِي طَالَمَا سُمِعَتْ عَنْهُ.

وَبَعْدَ اِنْتِهَائِنَا تَمَّ زَجَّنَا بِتِلْكَ اَلزِّنْزَانَةِ وَقَدْ كَانَ يَحْرُسُهَا ذَلِكَ اَلسَّجَّانِ قَاسِي اَلْمَلَامِحِ طَوِيلُ اَلشَّارِبِينَ.

أَخْذُ يَرْمِينَا بِعَدِيدِ اَلشَّتَائِمِ قَبْلَ دُخُولِنَا وَبَعْدَ دُخُولِنَا.

لَقَدْ رَأَيْتُ فِي تِلْكَ اَلزِّنْزَانَةِ اَلْعَجَبُ اَلْكَثِيرُ.

فَمِنْهُمْ مِنْ يُصَارِعُ اَلْمَوْتُ وَيَتَلَفَّظُ بِأَلْفَاظٍ غَيْرِ مَفْهُومَةٍ قَدْ اِسْتَفْحَلَ فِيهِمْ اَلْمَرَضُ وَالتَّعَبُ لَمْ يَأْتُوا لِتَلَقِّي اَلْعِلَاجِ بَلْ رُبَّمَا أَتَوْا لِتَكَوُّنِ مَحَطَّتِهِمْ اَلْأَخِيرَةِ قَبْلَ اَلرَّحِيلِ.

وَفِي مُنْتَصَفِ تِلْكَ اَللَّيْلَةَ طُرُقَ اَلْبَابِ وَدَخَلَ مَجْمُوعَةَ سَجَّانِينَ إِلَيْنَا وَقَامُوا بِاخْتِيَارِ أَرْبَعَةِ أَشْخَاصٍ يَمْتَلِكُونَ اَلْقُوَّةُ وَقَدْ كُنْتَ أَنَا مِنْ بَيْنِهِمْ وَطَلَبُوا مِنَّا أَنْ نَحْمِلَ أَشْخَاصًا آخَرِينَ مَوْجُودِينَ مَعَنَا وَلَكِنَّ اَلْمَرَضَ اِسْتَفْحَلَ بِهِمْ وَأَنْهَكَ قُوَاهُمْ وَلَكِنَّهُمْ لَا زَالوا يُصَارِعُونَ مِنْ أَجْلِ اَلْبَقَاءِ.

لَقَدْ قُمْنَا بِحَمْلِهِمْ وَطَلَبُوا مِنَّا أَنْ نَرْمِيهِمْ خَارِجِ ذَلِكَ اَلْبَابِ.

وَأُعَادُونَا إِلَى تِلْكَ اَلزِّنْزَانَةِ اَلْمَشْؤُومَةِ لَا نَعْلَمُ بِشَيْءٍ وَبَعْدِ سَاعَتَيْنِ تَقْرِيبًا فَتْحَ اَلْبَابِ مَرَّةً أُخْرَى وَطَلَبُوا مِنَّا اَلْخُرُوجُ وَأَعْطَوْنَا أَكْيَاسَ دَفْنِ اَلْمَوْتَى وَقَدْ كَتَبُوا أَرْقَامًا عَلَى جِبَاهِهِمْ وَطَلَبُوا مِنَّا أَنْ نَضَعَهُمْ دَاخِلَهَا وَنَنْقُلُهُمْ خَارِجِ ذَلِكَ اَلْبِنَاءِ.

لَقَدْ قَامُوا بِقَتْلِهِمْ بِبُطْءٍ وَبِهُدُوءٍ لَمْ أَرَ أَيُّ آثَارٍ جَدِيدَةٍ عَلَيْهِمْ وَلَكِنَّهُمْ قَتَلُوا.

لَقَدْ أَمْضَيْتُ لَيْلَتَيْنِ مِنْ اَلْأَسَى وَالْأَلَمِ وَالرُّعْبِ لَا تُوصَفُ كُنْتَ أَظُنُّ نَفْسِيٍّ سَأَقْتُلُ فِي اَلنِّهَايَةِ وَقَبْلَ مَجِيءٍ إِلَى هُنَا تَمَّ نَقْلِيِّ لِلطَّبِيبِ فِي إِحْدَى عِيَادَاتِ ذَلِكَ اَلْمَشْفَى وَقَامَ بِإِعْطَائِي اَلدَّوَاءِ لِعَيْنِي وَإِعَادَتِي إِلَى هُنَا.

لَقَدْ كَانُوا يَقُومُونَ بِقَتْلِ كُلِّ شَخْصٍ أَنْهَكَهُ اَلْمَرَضُ وَخَارَتْ قُوَاهُ وَكَأَنَّهُمْ لَا يُرِيدُونَ تَحَمُّلُ أَعْبَائِهِمْ أَوْ حَتَّى اَلنَّظَرِ إِلَيْهِمْ.

وَتَمُرَّ تِلْكَ اَلْأَيَّامِ بِثِقْلٍ رَهِيبٍ وَبِصَمْتٍ عَجِيبٍ وَكَانَ اَلْجَمِيعُ يَنْتَظِرُ ذَاكَ اَلزَّائِرِ اَلَّذِي يَقِفُ عَلَى هَذَا اَلْبَابِ وَلَا يَكَادُ يُغَادِرُ ذَلِكَ اَلْبِنَاءِ أَنَّهُ اَلْمَوْتُ نَعِمَ إِنَّهُ اَلْمَوْتُ مَهْمَا تَحَدَّثَتْ عَنْهُ فَإِنَّ نُفُوسَنَا قَدْ جُبِلَتْ عَلَى اَلرَّهْبَةِ وَالْخَوْفِ مِنْهُ ؛ مَهْمَا حَاوَلَتْ تَجَاهُلَهُ أَوْ إِقْنَاعِ نَفْسِكَ بِأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ بَابَا لِلْفَرَجِ وَالرَّحْمَةِ لِأَمْثَالِنَا إِلَّا أَنَّ اَلْخَوْفَ مِنْهُ يَشُدُّكَ إِلَى اَلْخَلَفِ لِيُجْبِرَكَ عَلَى اَلصُّمُودِ وَالصَّبْرِ .

وَلَكِنَّهُ لَا يُنْجِي حَذَرًا مِنْ قَدَّر وَكَيْفَ لِلْمَوْتِ أَنْ يُخْطِئَ مِنْ طُرُق بَابِهِ وَأَرَادَ لِقَائِهِ.

هَلْ مِنْ مَفَرٍّ مِنْ هَذَا الزَّائِرِ وَالضَّيْفِ الثَّقِيلِ وَالَّذِي اِعْتَادَ أَنَّ طُرُقَ بَابَا لَنْ يُغَادِرَ إِلَّا مَعَهُ مُسْتَضِيفُهُ تَارِكٌ هُمُومِ السِّنِينَ وَالْآلَامِ خَلْفَ ظَهْرِهِ.

وَفِي تِلْكَ اللَّيْلَةَ الْبَارِدَةَ وَالَّتِي أَحَسَّ بِهَا الْجَمِيعُ لَا أَدْرِي رُبَّمَا كَانَتْ الثُّلُوجُ تَتَسَاقَطُ لِتَلَقِّي أَعْبَاءِ السِّنِينَ وَهُمُومُهَا عَنْ كَاهِلِهَا أَوْ رُبَّمَا لِتُخْفِي مَعَالِمَ تِلْكَ الدِّمَاءِ وَالَّتِي اِمْتَزَجَتْ بِكُلِّ شِبْرِ مِنْ هَذِهِ الْأَرْضِ الْمُبَارَكَةِ أَوْ رُبَّمَا لِتَزْرَع فِينَا ذَلِكَ الْأَمَلِ الْكَبِيرِ مِنْ جَدِيدٍ وَالَّذِي أَخَذَ يَتَبَخَّرُ وَيَزُولُ وَيَتَضَاءَلُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ.

جَلَسْتُ أُنَاظِرُ بِوُجُوهِ كُلِّ أُولَئِكَ الْبُؤَسَاءِ وَالَّتِي تَغَيَّرَتْ مَلَامِحَهَا عَنْ أَوَّلِ لِقَاءِ وَأَوَّلَ صُورَةٍ طَبَعَتْ فِي مُخَيِّلَتِي وَمَعَ مُرُورِ تِلْكَ الْأَيَّامِ وَكُلِّ تِلْكَ الْأَوْجَاعِ وَبَعْدَ فِرَاقٍ طَالَ عَنْ أَحْبَابِي وَعَائِلَتِي وَشَوْقٍ يَحْرُقُ فُؤَادِي وَلَا تَهْدَأُ نَارَهُ.

اَلْكَثِيرَ مِنْ اَلتَّسَاؤُلَاتِ أَخَذَتْ تجَوُّل فِي خَاطِرِي.

هَلْ لَازَالُوا عَلَى قَيْدِ اَلْحَيَاةِ؟

هَلْ لَا زالوا يَعْرِفُونَ أَنِّي حَيٌّ؟

هَلْ لَازَالُوا يَذْكُرُونَنِي؟

أَمْ أَنَّ تِلْكَ اَلْأَيَّامِ وَالظُّرُوفِ وَكُلِّ تِلْكَ اَلْآلَامِ قَدْ أَخَذَتْ كُلَّ أَثَرِ لِي فِي نُفُوسِهِمْ مَعَ غِيَابِيٍّ.
أَخَذْتُ أُنَاظِرُ كُلُّ تِلْكَ اَلْوُجُوهِ اَلْمُغَيَّبَةِ.

لَمْ أَعُدْ أَرَى ذَلِكَ اَلْبَرِيقِ فِي عُيُونِهِمْ وَلَمْ أَعُدْ أَحَسَّ بِتِلْكَ اَلنُّفُوسِ وَتَمَسُّكِهَا بِكُلِّ تِلْكَ اَلْآمَالِ. نَعَمْ لَقَدْ تَبَخَّرَتْ وَتَلَاشَتْ وَرُبَّمَا قَدْ دُفِنَتْ فِي قُلُوبِ بَعْضُهُمْ وَكَأَنَّهُ قَدْ رَفَعَ تِلْكَ اَلرَّايَةِ اَلْبَيْضَاءِ وَقَدْ اِسْتَسْلَمَ لِلْمَوْتِ تَارِكًا ذَلِكَ اَلْمَكَانِ وَمُوَدِّعًا مِنْ أُحِبُّهُ بِلَا عَوْدَةٍ

. . .

((أَخْبَرَهُمْ أَنِّي أَحَبَّهُمْ))

فَارِسُ:

لَقَدْ رَأَيْتُ ممدوح مُكَبَّلاً بِكُلِّ ذَلِكَ اَلْحُزْنِ وَمُقَيَّدٍ بِكُلِّ تِلْكَ اَلذِّكْرَيَاتِ اَلْقَاسِيَةِ رَأَيْتُهُ يَسْقُطُ وَيَتَلَاشَى أَمَامَ عَيْنِي بِطَرِيقَةٍ لَا تُوصَفُ لَمْ يَكُنْ يُعَانِي مِنْ أَيِّ مَرَضٍ وَلَكِنَّهُ رُبَّمَا أَعْلَنَ اَلِاسْتِسْلَامُ وَاخْتَارَ اَلْفِرَاقُ حَتَّى دَوَّنَ وَدَاعٌ

اِقْتَرَبَتْ مِنْهُ لِأَحْدَثِهِ وَأَسْأَلهُ مَا بَالُكَ يَا مَمْدُوحْ مَا اَلَّذِي حَصَلَ؟

هَلْ تُعَانِي مِنْ شَيْءٍ؟

مَمْدُوحْ:

يُتَمْتِمَ كَلِمَاتٍ غَيْرِ مَفْهُومَةٍ لَمْ يَعُدْ يَعِي شَيَّ أَوْ رُبَّمَا أَصَابَهُ خُطَبَ مَا لَمْ أَكُنْ أَفْهَمُ مَا اَلَّذِي حَدَثَ لَهُ.

وَلَكِنِّي أَعْلَم أَنَّهُ لَمْ يَأْكُلْ مُنْذُ يَوْمَيْنِ وَلَمْ يَنِمْ أَيْضًا.

لَقَدْ اِفْتَقَدَ وَعْيُهُ وَخَارَتْ قُوَاهُ وافتقد الشغف للحياة؛ أَصْبَحَ كالْطَفَلْ اَلصَّغِيرَ يَجْهَلُ مَا يَحْدُثُ حَوْلَهُ.

لَقَدْ اِفْتَقَدَ تَرْكِيزُهُ وَقُوَّتُهُ، وأَنْهكَهُ اَلتَّفْكِيرُ وَالْخَوْفُ وَفَقْدُ ذَلِكَ اَلْأَمَلِ وَلَمْ يَعُدْ يُرِيدُ مُتَابَعَةَ ذَلِكَ اَلطَّرِيقِ اَلْقَاسِيَةِ.

لَقَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّ مَنْ يَمُرُّ بِهَذِهِ اَلْحَالَةِ إِذَا اِسْتَمَرَّتْ لِأَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فَإِنَّهُ سَيَمُوتُ.

هُوَ يَحْتَاجُ لِعِنَايَةٍ بَسِيطَةٍ وَيَحْتَاجُ إِلَى اَلنَّوْمِ يَحْتَاجُ ذَلِكَ اَلدَّوَاءِ اَلَّذِي يَمْنَحُهُ اَلنَّوْمُ لِيَعُودَ إِلَى تَرْكِيزِهِ وَوَعْيِهِ.

وَلَكِنَّنَا لَا نَمْلِكُ إِلَّا اَلدُّعَاءُ له فنحن عاجزين ربما أكثر منه.

لَقَدْ حَاوَلَتْ أَنْ أُعْطِيَهُ جُرْعَةَ أَمَلٍ وَأُسَاعِدهُ عَلَى اَلنَّوْمِ وَلَكِنِّي لَمْ أَجِدْ أَذِنَ صَاغِيَةً.

وَمَا هِيَ إِلَّا يَوْمَيْنِ وَرَأَيْتُ ممدوح يُحْتَضَرُ.

لَقَدْ اِقْتَرَبَ وَدَاعُهُ بَعْدَ أَنْ رَافَقْتُهُ مُنْذُ بِدَايَةِ اَلطَّرِيقِ وَشَارَكْتُهُ بِتِلْكَ اَلْقُيُودِ وَتَشَارُكِنَا كُلَّ تِلْكَ اَلدُّمُوعِ وَالْآمَالِ وَالْأَحْزَانِ.

اِقْتَرَبَتْ مِنْهُ لِأَسْمَعَ آخَر كَلِمَاتِهِ

كَيْفَ حَالُكَ يَا مَمْدُوحْ؟

هَلْ سَتَتْرُكُنِي لِوَحْدِي أَلَّا تُرِيدَ أَنْ نَخْرُجَ سَوِيَّةٌ؟

أَلَّا تُرِيدَ أَنْ تَعُودَ لِأَطْفَالِكَ وَأَهْلَكَ؟

أَلَّا تُرِيدَ أَنْ تَعِيشَ ذَلِكَ اَلْحُلْمِ وَاَلَّذِي طَالَمَا تُشَارِكَانِهِ؟

مَمْدُوحْ:

أَمْسَكَ يَدِي

اَللَّهَ يَا فَارِسُ كُنْتُ أَتَمَنَّى ذَلِكَ اَلْيَوْمِ كُنْتُ أَشْتَاقُ إِلَيْهِ وَلَكِنِّي لَمْ أَحْصُلْ عَلَيْهِ وَلَنْ أَحْصُلَ.

حَانَ وَقْتُ اَلْوَدَاعِ يَا فَارِسُ.

اِنْهَارَتْ دُمُوعِي عَلَى وَجْنَتِي.

إِي أَسَى وَايْ أَحْزَانٍ سَنَعِيشُهَا بَعْدَ لَا أَدْرِي.

لَقَدْ اِكْتَوَيْتُ بِكُلِّ أَنْوَاعِ اَلْأَسَى وَالْفِرَاقِ لَقَدْ تَعِبَتْ كَثِيرًا وَأَصْبَحَتْ أَحْسُد كُلُّ مِنْ رَحَلَ وَحَطَّمَ كُلُّ هَذِهِ اَلْقُيُودِ وَتَمَرُّدِ عَلَى كُلِّ هَذِهِ اَلْقَوَانِين وَالظَّالِمُونَ.

مَمْدُوحْ:

لَا تَبْكِي يَا فَارِسَ اِقْتَرَبَ مِنِّي

فَارِسُ:

مُمْسِك يَدِ مَمْدُوحْ وَاقْتَرَبَ مِنْ وُجْهَةٍ وَنَظَرٍ فِي عَيْنَيْهِ وَالَّتِي حَبَسَتْ كُلَّ تِلْكَ اَلدُّمُوعِ وَالْأَسَى

مَمْدُوحْ:

لَا تَبْكِي يَا فَارِسَ أَنْتَ صَدِيقِي وَأَخِي وَأَنَا أُحِبُّكَ أَرْجُوكُ يَا فَارِسُ إِذَا قَدَّرَ لَكَ وَخَرَجَتْ حَيَّ مِنْ هَذَا اَلْمَكَانِ اَلْمَشْؤُومِ أَنْ تَذْهَبَ إِلَى أَوْلَادِي وَتُخْبِرهُمْ أَنِّي أَحَبَّهُمْ وَإِنِّي قَدْ اِشْتَقْتُ إِلَيْهِمْ وَإِنِّي لَمُّ أُنْسِهِمْ لِأَيِّ لَحْظَةٍ فِي حَيَاتِي وَإِنِّي سَأُفَارِقُ هَذِهِ اَلدُّنْيَا عَلَى حُبِّهِمْ وَذِكْرَاهُمْ.

فَارِسٌ:

يَبْتَعِدَ عَنْ مَمْدُوحْ وَهُوَ يَحْمِلُ كُلُّ ذَلِكَ اَلْأَسَى وَالْحُزْنِ.

لِمَاذَا قُدِّرَ عَلَيْنَا كُلِّ هَذِهِ اَلْأَحْزَانِ؟

لِمَاذَا كُتِبَ عَلَيْنَا كُلِّ هَذَا اَلْفِرَاقِ؟

لَقَدْ تَعِبَتْ لَمْ أَعُدْ أَسْتَطِيعُ مُتَابَعَةُ هَذِهِ اَلطَّرِيقِ لَمْ أَعُدْ أَسْتَطِيعُ تَحَمُّلُ كُلِّ هَذَا اَلْفِرَاقِ.

وَبَعْدُ قَلِيلٍ رَأَيْتُ أَحَدُهُمْ يَطْرُقُ اَلْبَابُ لِيُخْبِرَهُمْ أَنَّ ممدوح يُحْتَضَرُ وَهُوَ مَرِيضُ مَرَضٍ شَدِيدٍ.

لِيَأْتِيَهُ اَلرَّدُّ مِنْ خَلْفِ ذَلِكَ اَلْبَابِ بِبَعْضِ اَلشَّتَائِمِ اَلْجَارِحَةِ وَالْقَاسِيَةِ وَيُخْبِرهُ عِنْدَمَا يَمُوتُ أَخْبَرَنِي (وَيُرْفِقَهَا بِبَعْضِ اَلشَّتَائِمِ).

وَبَعْدُ وَقْتٍ قَصِيرٍ رَايَتَهُمْ يَتَحَدَّثُونَ لَقَدْ مَاتَ مَمْدُوحْ لَقَدْ أَزَاحَ عَنْ كَاهِلِهِ كُلَّ هَذِهِ اَلْهُمُومِ وَتَرَكْنَا لِنُكْمِلَ طَرِيقَنَا وَسَطِ كُلِّ ذَلِكَ اَلْأَسَى وَالْأَحْزَانِ

. . .

أَغْمَضتُ عَيْنِي خَوْف وَأَلَم، حَاوَلَتْ أَنْ أَتْرُكَ لِمُخَيِّلَتِي عِنَانَهَا

لَعَلَّهَا تُنَجِّينِي مَنَّ ذَلِكَ اَلسُّقُوطِ وَلَعَلَّهَا تَبُثُّ فِي نَفْسِيٍّ ذَلِكَ اَلْحَنِينِ وَذَلِكَ اَلْأَمَلُ

لَعَلَّهَا تُخْفِي وَرَاءَهَا كُلُّ أَحْزَانِي وَآلَامِي.

وَايْ اِشْتِيَاقٍ سَيَفُوقُ ذَلِكَ اَلشَّوْقِ؟

وَايْ حُنَيْنْ أَرْسُمُهُ فِي مُخَيِّلَتِي وَابْعَثْهُ مِنْ خَلْفِ تِلْكَ اَلْجُدْرَانِ اَلصَّمَّاءِ؟

لَمْ يَعُدْ كُلُّ ذَلِكَ يَعْنِينِي

فَالْأَلَمُ يَتَجَدَّدُ مَعَ كُلِّ نَفسِ أَخْذِهِ وَمَعَ كُلِّ قَطْرَةِ دَمٍ تَسْرِي فِي عُرُوقِي.

وَكَيْفَ لِلرَّاحِلِينَ أَنْ يَتْرُكُوا أَحْلَامُهُمْ؟

وَكَيْفَ تَنَامُ عُيُونَهُمْ وَتِلْكَ اَلْعُيُون وَالْقُلُوبِ تَنْزِفُ مِنْ بَعْدِهِمْ؟

لِمَاذَا سَقَطَتْ حُرُوفَهُمْ وَشَوْقَهُمْ؟

لِمَاذَا سَكَنُوا اَلْقُلُوبُ وَغَادَرُونَا؟

لِمَاذَا تَرَكُوا فِي أَعْنَاقِنَا حِمْلاً ثَقِيلاً نَعْجِزُ عَنْ حَمْلَةِ وَالْمُضِيِّ بِهِ؟

أَصْبَحَتْ حَيَاتُنَا عِبَارَةً عَنْ تساؤلات بِلَا أَجْوِبَةٍ وَبِلَا مَعْنَى

وَكَأَنَّهَا قَدْ اِخْتَارَتْ غِيَابَنَا

وَكَأَنَّهَا قَدْ اِخْتَارَتْ عَذَابَنَا.

لَمْ أَعُدْ اُذْكُرْ كُلَّ تِلْكَ اَلصُّوَرِ

لَمْ أَعُدْ اُذْكُرْ كُلَّ تِلْكَ اَلْحُرُوفِ وَالْأَسْمَاءِ اَلَّتِي سَقَطَتْ.

لَمْ أَعُدْ أَشْتَاقُ

وَلَمْ يُعَدْ لِذَلِكَ اَلْحُلْمِ أَيَّ مَعْنًى وَوُجُودٍ فِي ذَاكِرَتِي.

لَقَدْ كَانَ مَمْدُوحَ أَوَّلَ اَلْمُغَادِرِينَ وَلَكِنَّهُ لَنْ يَكُونَ اَلْأَخِيرُ فلَقَدْ فتَحَ ذَلِكَ اَلْبَابِ وَاَلَّذِي أَحْسَسْنَا جَمِيعًا أَنَّنَا نَقِفُ أَمَامُهُ.

فَالْكَثِيرُ مِمَّنْ اِسْتَفْحَلَ اَلْمَرَضُ فِيهِمْ وَتَعَدَّدَتْ أَنْوَاعَهُ وَتَرْكِ بَصْمَتِهِ فِيهِمْ وَأَذَاقَ كُلُّ جِسْمِ سَكَنِهِ عَدِيدَ اَلْآلَامِ وَالْأَوْجَاعِ.

لَمْ يَمْضِ وَقْتُ طَوِيلُ حَتَّى سَقَطَ مَعَاذُ ذَلِكَ اَلشَّابِّ اَلصَّغِيرِ وَاَلَّذِي رُبَّمَا يُصَغَّرنَا عُمْرًا ؛

سَقَطَ فَجْأَةٍ وَعَلَى حِينِ غِرَّةٍ سَقَطَ مَشْلُولُ اَلْقَدَمَيْنِ وَعَاجِزٍ عَنْ اَلْحَرَكَةِ.

لَقَدْ رَأَيْتُهُ يَسْقُطُ أَمَامَ عَيْنِي وَكَأَنَّهُ قَدْ اِخْتَارَ اَلْفِرَاقُ أَيْضًا وَأَعْلَنَ اَلِاسْتِسْلَامُ وَكَأَنَّهُ مَلَّ اَلْحَيَاةَ وَلَمْ يَعُدْ يَشْعُرُ بِذَلِكَ اَلْحُبِّ وَالشَّغَفِ اَلَّذِي يَحْيَا فِي قُلُوبِ كُلِّ شَبَابِ جِيلَهُ.

جَلَسَتْ أَمَامَهُ وَنَظَرَتْ فِي عَيْنَيْهِ لَقَدْ عَجَزَتْ عَنْ اَلْحَدِيثِ مَعَهُ كَمَا عَجزَ معاذ عَنْ تَحْرِيكِ ذَلِكَ اَللِّسَانِ وَالنُّطْقُ بِمَا يَجُولُ فِي خَاطِرِهِ.

وَلَكِنِّي رَأَيتُ فِي عَيْنَيْهِ تِلْكَ اَلنَّظْرَةِ اَلَّتِي رَأَيْتُهَا فِي عَيْنِي ممدوح فِي أَوَاخِرِ حَيَاتِهِ أَنَّهَا نَظْرَةُ اَلْوَدَاعِ.

نَعِمَ لَقَدْ اِخْتَارَ اَلْوَدَاعُ وَلُبْسُ ذَلِكَ اَلثَّوْبِ اَلْأَبْيَضِ قَبْلَ أَنْ تُفَارِقَ رُوحَهُ جَسَدَهُ وَقَبْل أَنْ يَغْمُضَ عَيْنَيْهِ.

وَفِي صَبَاحِ اَلْيَوْمِ اَلتَّالِي طُرُقَ اَلْبَابِ وَقَدْ حَمَلَ اِثْنَانِ مَعَاذَ خَارِجِ تِلْكَ اَلزِّنْزَانَةِ وَعِنْدَ خُرُوجِهِ رَأَيْتُ تِلْكَ اَلْعُيُونِ تَنْظُرُ إِلَيْنَا جَمِيعًا وَكَأَنَّهَا مُودعَةٌ لَنَا وَتُشْفِقُ عَلَى حَالِنَا رَأَيْتُهَا تَحْبِسُ اَلدُّمُوعُ وَتَتَحَدَّثُ عَنْ كُلِّ ذَلِكَ اَلْقَهْرِ وَالْأَسَى.

أَغْمَضَتْ عَيْنِي خَوْف وَأَلَم، حَاوَلَتْ أَنْ أَتْرُكَ لِمُخَيِّلَتِي عِنَانَهَا لَعَلَّهَا تُنَجِّينِي مَنَّ ذَلِكَ اَلسُّقُوطِ وَلَعَلَّهَا تَبُثُّ فِي نَفْسِيٍّ ذَلِكَ اَلْحَنِينِ وَذَلِكَ اَلْأَمَلُ لَعَلَّهَا تُخْفِي وَرَاءَهَا كُلُّ أَحْزَانِي وَآلَامِي.

وَايْ اِشْتِيَاقٍ سَيَفُوقُ ذَلِكَ اَلشَّوْق؟

وَايْ حُنَيْنْ أَرْسُمُهُ فِي مُخَيِّلَتِي وَابْعَثْهُ مِنْ خَلْفِ تِلْكَ اَلْجُدْرَانِ اَلصَّمَّاءِ؟

لَمْ يَعُدْ كُلُّ ذَلِكَ يَعْنِينِي فَالْأَلَمُ يَتَجَدَّدُ مَعَ كُلِّ نَفْسِ أَخْذِهِ وَمَعَ كُلِّ قَطْرَةِ دَمٍ تَسْرِي فِي عُرُوقِي.

وَكَيْفَ لِلرَّاحِلِينَ أَنْ يَتْرُكُوا أَحْلَامُهُمْ؟

وَكَيْفَ تَنَامُ عُيُونَهُمْ وَتِلْكَ اَلْعُيُون وَالْقُلُوبِ تَنْزِفُ مِنْ بَعْدِهِمْ؟

لِمَاذَا سَقَطَتْ حُرُوفَهُمْ وَشَوْقَهُمْ؟ لِمَاذَا سَكَنُوا اَلْقُلُوبُ وَغَادَرُونَا؟

لِمَاذَا تَرَكُوا فِي أَعْنَاقِنَا حِمْلاً ثَقِيلاً نَعْجِزُ عَنْ حَمْلَةِ وَالْمُضِيِّ بِهِ؟

جَلَسَتْ أَنَا وَمَرْوَانْ نَتَبَادَل اَلْأَحَادِيثُ وَهُوَ رَجُلٌ يَكْبُرُنِي سَنُّنَا وَقَدْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ اَلْعِلْمِ وَقَدْ كُنْتَ أُحِبُّ اَلْجُلُوسُ مَعَهُ وَالِاسْتِمَاعِ لِأَحَادِيثِهِ أَنَّهُ رَجُلٌ فِي اَلْأَرْبَعِينَ مِنْ عُمْرِهِ وَتَرْبُطُنَا بِهُمْ عَلَاقَاتُ نِسَبٍ، كَانَ كَغَيْرِهِ مِمَّنْ عَاشِرَتهِمْ وَعَرَفْتُهُمْ يَحْمِلُ فِي قَلْبِهِ عَدِيدَ اَلْمَآسِي وَالْأَحْزَانِ وَلَكِنَّهُ رَجُلٌ صُلْبٌ قَدْ خَبَرَ اَلْحَيَاةِ وَاخْتَارَ اَلصُّمُودُ وَالصَّبْرُ حَتَّى آخِرٍ أَنْفَاسِهِ ، لَمْ يَفْقِدْ اَلْأَمَلُ لِلَحْظَةِ بَلْ كَانَ يَزْرَعُ فِي قَلْبِي أَمَلَ اَلْخَلَاص وَالْحُرِّيَّةِ .

وَلَكِنَّهُ كَانَ يُعَانِي مِنْ وَرَمٍ فِي أَطْرَافِهِ وَأَلَمُ شَدِيدٌ وَقَدْ أَخَذَ بِالِازْدِيَادِ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ وَقَدْ كَانَ كَحَالِي يُكَابِر عَلَى اَلْمَرَضِ وَيَرْفُضُ اَلْحَدِيثُ بِأَوْجَاعِهِ وَآلَامِهِ أَمَامَ أُولَئِكَ اَلْجَلَّادِينَ، لِتَجَنُّبِ اَلذَّهَابِ إِلَى تِلْكَ اَلْمُسْتَشْفَى اَللَّعِينِ وَاَلَّذِي كَانَ بِمَثَابَةِ سَاحَةٍ لِلتَّصْفِيَةِ وَقَتْلِ كُلِّ تِلْكَ اَلنُّفُوسِ اَلْمُرْهَقَةِ.

وَلَكِنْ مَعَ مُرُورِ اَلْأَيَّامِ وَكَثْرَةِ تِلْكَ اَلْعُقُوبَاتِ اَلْقَاسِيَةِ.

أَخْذٌ بِالسُّقُوطِ وَالِانْهِيَارِ أَمَّا أُولَئِكَ اَلْجَلَّادُونَ وَأَخَذَتْ آثَارُ اَلْمَرَضِ وَالتَّعَبِ تَظْهَرُ عَلَيْهِ.

وَعِنْدَمَا اِكْتَشَفَ أَمْرُهُ وَظَهَرَتْ عَلَيْهِ عَلَامَاتُ اَلْمَرَضِ.

أَتَاهُ ذَلِكَ اَلطَّبِيبُ وَاَلَّذِي يَحْمِلُ تِلْكَ اَلْوَرَقَةِ وَالْقَلَمِ بِيَدِهِ وَأَخَذَ بِتَسْجِيلِ اِسْمِهِ وَإِغْلَاقُ ذَلِكَ اَلْبَابِ خَلَفَهُ.

لَقَدْ أَيْقَنْتُ وَأَيْقَنَ أَنَّهُ ذَاهِبٌ إِلَى تِلْكَ اَلْمُسْتَشْفَى وَاَلَّتِي طَالَمَا سَمِعْنَا بِوَيْلَاتِهَا وَكُلَّ تِلْكَ اَلْوُجُوهِ اَلظَّالِمَةِ اَلَّتِي تَحْكُمُهَا وَكُلَّ تِلْكَ اَلْأَيْدِي اَلْمُلَطَّخَةِ بِدِمَاءِ اَلْعَاجِزِينَ وَالْمُنْهَكِينَ وَالضُّعَفَاءُ.

لَقَدْ جَلَسَتْ مَعَ مَرْوَانْ وَقَدْ بَدَأَ اَلْخَوْفُ وَالْيَأْسُ فِي عَيْنَيْهِ وَحَاوَلَتْ اَلتَّهْدِئَةُ مِنْ رَوْعِهِ وَخَوْفِهِ وَمَنْحِهِ بَعْضَ اَلْقُوَّةِ وَالصَّبْرِ.

لَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَتَجَلَّدَ وَيَسِيرُ عَلَى قَدَمَيْهِ وَلَا يُبْدِي هَذَا اَلضَّعْفِ أَمَامَهُمْ لِكَيْ لَا يَكُونُ ضَحِيَّةً كَمَنَ سَبَقَهُ أَوْ كَمَنَ سَمِعْنَا عَنْهُ وَفِي صَبَاحِ اَلْيَوْمِ اَلتَّالِي خَرَجَ مَرْوَانْ مُوَدِّعًا وَطَالِبًا لِلسَّمَاحِ وَالْعَفْوِ.

خَرَجَ وَعَيْنَيْهِ قَدْ فَقَدَتْ بَرِيقَهَا وَشَوْقَهَا وَحَنِينَهَا.

لَقَدْ نَظَرَتْ إِلَيْهِ نَظَرَتْ اَلْعَاجِزَ لِلْعَاجِزِ وَنَظَرِهِ اَلْمَيِّتِ، لِلْمُنْتَظَرِ لِلْمَوْتِ.

هَذَا لَيْسَ خِيَارُنَا وَلَنْ يَكُونَ، فَنَحْنُ خِيَارُنَا اَلْحُرِّيَّةُ وَتَكْسِيرُ اَلْقُيُودِ وَلَكِنَّ اِخْتِيَارَهُمْ هُوَ اَلْمَوْتُ وَزَرْعُ اَلْقُيُودِ وَتَحْطِيمِ كُلِّ تِلْكَ اَلْأَقْلَامِ اَلَّتِي لَنْ تَنْكَسِرَ وَإِخْفَاءُ تِلْكَ اَلشَّمْسِ وَاَلَّتِي لَنْ تَغِيبَ.

لَقَدْ غَادَرْنَا مَرْوَانْ وَأَخَذَتْ أَيَّامَنَا بِالْمُضِيِّ كَمَا غَادَرْنَا ممدوح وَغَادَرْنَا مَعَاذ وَغَادَرْنَا غَيْرَهُمْ بِعَدِيدٍ اَلْأَسْبَابِ فَمِنْهُمْ مِنْ مَاتَ تَحْتَ ضَرَبَاتِهِمْ وَمِنْهُمْ مِنْ مَاتَ قَهْرٌ وَمِنْهُمْ مِنْ مَاتَ شَوْقٌ وَأَلَمٌ وَلَكِنَّ اَلنَّتِيجَةَ وَاحِدَةٌ وَهِيَ اَلْفِرَاقُ وَالَّذِي لَمْ يَرْحَلْ عَنَّا لِلَحْظَةٍ أَوْ يُفَارِقْنَا لِيَوْمَ وَأَخَذَتْ اَلْأَيَّامُ تَمْضِي وَكُلُّ يَوْمٍ نُوَدِّعُ أَحَدُهُمْ أُمًّا مُفَارِقًا بِدُمُوعٍ أَوْ مَحْمُولٍ عَلَى اَلْأَيْدِي أَوْ مُهَاجِرًا مِسْكِينًا لَا يَعْلَمُ وُجْهَتَهُ . . .

لَقَدْ بَاتَ فَارِسً أَكْثَرَ وَحْدَةً مِنْ قِبَلٍ، وَالْمَرَضُ وَالْأَلَمُ لَمْ يُفَارِقْهُ بَلْ اِخْتَارَ اَلْبَقَاءُ مَعَهُ وَالتَّنَفُّسِ مِنْ أَنْفَاسِهِ، اِخْتَارَ اَلِاسْتِيطَانُ فِي رُوحِهِ قَبْلَ جَسَدِهِ وَبَعْدَ مُضِيٍّ وَقْتٍ طَوِيلٍ مِنْ سِجْنِهِ اِخْتَارَ فَارِسً اَلِاسْتِسْلَامُ لَمْ يَعُدْ يَقْوَى عَلَى اَلْحَرَكَةِ لقد اِخْتَارَ أَنْ يَسْلُكَ طَرِيقُ مِنْ سَبَقَهُ.

وفِي أَحَدِ اَلْأَيَّامِ طُرُقَ اَلْبَابِ (رُبَّمَا هُوَ اَلطَّبِيبُ) فَهَذَا هُوَ وَقْتُ جَوْلَتِهِ اَلِاعْتِيَادِيَّةِ وَقَدْ أَخَذَ فَارِسُ اَلْقَرَارُ بِالْخُرُوجِ إِلَيْهِ لَقَدْ فَقَدَ اَلْأَمَلُ أَوْ أَرَادَ أَنْ يُجَدِّدَهُ.

خَرَجَ إِلَى اَلطَّبِيبِ بَعْدَ نِدَائِهِ وَحَدَّثَهُ عَنْ مَرَضِهِ وَآلَامِهِ وَقَدْ نَظَرَ إِلَى كُلِّ تِلْكَ اَلْجُرُوحِ وَالنَّدَبَاتِ اَلَّتِي غَطَّتْ كُلَّ شِبْرٍ مِنْ جِسْمِهِ وَأَخَذَتْ تَنْزِفُ دُونَ تَوَقُّفٌ وَتَزِيدُ مِنْ آلَامِهِ وَأَوْجَاعِهِ.

غَادَرَ اَلطَّبِيبُ وَاغْلِقْ اَلْبَابَ خَلْفَهُ وَاغْلِقْ مَعَهُ بَابَ اَلْأَمَلِ وَالْحَيَاةِ وَفَتَحَتْ أَبْوَابُ اَلْيَأْسِ وَالْإِحْبَاطِ.

لَقَدْ مَضَتْ تِلْكَ اَللَّيْلَةَ مِنْ حَيَاةِ فَارِسٍ بِسُرْعَةِ شَدِيدَةٍ وَاَلَّتِي رُبَّمَا هِيَ اَلْوَحِيدَةُ اَلَّتِي أَرَادَهَا أَنْ تَكُونَ أَطْوَلَ لَيَالِي عُمْرِهِ فَرُبَّمَا تَكُونُ هِيَ لَيْلَةُ اَلْوَدَاعِ وَالْفِرَاقِ.

رُبَّمَا يُفَارِقُ هَذِهِ اَلدُّنْيَا وَيَسِيرُ فِي طَرِيقِهِ إِلَى مَحَطَّتِهِ اَلْأَخِيرَةِ.

لَقَدْ جَلَسَ يُنَاظِرُ كُلُّ تِلْكَ اَلْوُجُوهِ اَلنَّائِمَةِ اَلْمُرْهَقَةِ أَخْذ يُنَاظِرُ تِلْكَ اَلزِّنْزَانَةِ وَاَلَّتِي أَمْضَى فِيهَا أَقْسَى سِنِينَ حَيَاتُهُ وَاَلَّتِي تَحَطَّمَتْ عَلَى جُدْرَانِهَا كُلَّ ذِكْرَيَاتِهِ وَأَحْلَامِهِ.

أَخْذٌ يَقْلِبُ نَاظِرَيْهِ وَكُلَّ أَحْزَانِ اَلدُّنْيَا قَدْ حَطَّتْ رِحَالَهَا فِي قَلْبِهِ.

طَافَ بِذَاكِرَتِهِ وَعَقْلِهِ إِلَى أَهْلِهِ وَإِلَى بَيْتِهِ وَإِلَى أَصْدِقَائِهِ وَإِلَى كُلِّ تِلْكَ اَلذِّكْرَيَاتِ اَلْجَمِيلَةِ وَالْأَحْلَامِ اَلْوَرْدِيَّةِ اَلَّتِي تَحَطَّمَتْ أَمَامَ عَيْنَيْهِ.

إِنَّهُ اَلْيَأْسُ وَالْإِحْبَاطُ لَا شَيْءَ غَيْرَهُ رُبَّمَا اَلْفِرَاقُ وَرُبَّمَا اَلْوَدَاعُ وَرُبَّمَا اَلْعَوْدَةُ بِذَلِكَ اَلدَّوَاءِ اَلَّذِي يُجَدِّدُ اَلْأَمَلُ وَيْحِي اَلْقُلُوبَ وَيُسَاعِدُهُ عَلَى اَلنُّهُوضِ وَالصُّمُودِ.

وَأَشْرَقَتْ شَمْسُ ذَلِكَ اَلْيَوْمِ اَلَّذِي قَدْ يَكُونُ آخِرُ يَوْمٍ لَهُ عَلَى هَذِهِ اَلدُّنْيَا وَجَاءَ اَلنِّدَاءُ بِحُرُوفِ اِسْمِهِ (فَارِسُ) وَأَخْذِ يُوَدِّعُ اَلْحَاضِرِينَ وَيَطْلُبُ مِنْهُمْ اَلسَّمَاحُ وَالْعَفْوُ وَالدُّعَاءُ وَيُوصِيهِمْ بِنَقْلِ تِلْكَ اَلرِّسَالَةِ لِأَهْلِهِ كَغَيْرِهِ مِمَّنْ تَرَكُوا عَدِيدُ اَلرَّسَائِلِ وَالْحُرُوفِ وَلَمْ تُنْصِفْهُمْ اَلْحَيَاةُ بِإِيصَالِهَا.

أَلْقَى اَلنَّظْرَةَ اَلْأَخِيرَةَ إِلَى تِلْكَ اَلزِّنْزَانَةِ وَالَّتِي قَدْ تَكُونُ تُشْفِقُ عَلَى حَالِنَا وَتَنْزِف أَلَمًا وَلَكِنَّهَا تَعْجِزُ عَنْ إِنْصَافِنَا كَمَا عَجَزَتْ كُلَّ اَلدُّنْيَا عَنْ إِنْصَافِنَا.

خَرَجَ مِنْ ذَلِكَ اَلْبَابِ وَقَدْ اِجْتَمَعَ غَيْرُهُ فِي اِنْتِظَارِهِ وَقَدْ طَلَبَ مِنْهُمْ حَمْلِ تِلْكَ اَلْجُثَّةِ اَلْهَامِدَةِ اَلْمُخَضَّبَةِ بِالدِّمَاءِ وَالَّتِي رُبَّمَا قَتَلَتْ لَيْلاً ظُلْمًا وَعُدْوَانًا.

لَقَدْ كَانَ اَلْجَمِيعُ مُنْهَكِينَ وَأَعْيَاهُمْ اَلتَّعَبُ وَالْمَرَضُ وَطُولُ اَلْبَقَاءِ فِي أَعْمَاقِ هَذِهِ اَلْأَرْضِ وَقَدْ أَمْضَوْا عَدِيدُ اَلسِّنِينَ وَالشُّهُورِ لَمْ تُلَمِّحْ عُيُونَهُمْ ضَوْءَ تِلْكَ اَلشَّمْسِ اَلسَّاطِعَةِ وَلَمْ تَشُمْ رِيحُ اَلْحُرِّيَّةِ وَذَاكَ اَلْهَوَاءُ اَلنَّقِيُّ وَالَّذِي يَحْيَا اَلنُّفُوسَ.

لَقَدْ حَمَّلَتْ تِلْكَ اَلْجُثَّةِ وَقَدْ سَأَلَ مِنْهَا اَلدِّمَاءُ بِكَثْرَةٍ وَقَدْ أَخَذَتْ تَنْزِفُ مِنْ مُؤَخَّرَةِ رَأْسِهِ وَكَأَنَّهُ قَدْ تَلَقَّى عَلَيْهَا ضَرْبَةٌ غَادِرَةٌ فَأَرْدَتْهُ قَتِيلاً بِلَا حَرَاكٍ وَلَا أَمَل.

وَحَتَّى تِلْكَ اَلْأَجْسَامِ اَلنَّحِيلَةِ لَمْ تَسْلَمْ مِنْ اَلْأَذَى بَلْ أَخَذَ أُولَئِكَ اَلْجَلَّادُونَ بِضَرْبِهِمْ بِتِلْكَ اَلْعِصِيِّ اَلثَّخِينَةِ اَلْمُتْرَفَةِ وَاَلَّتِي تَغَذَّتْ عَلَى دِمَاءِ كُلِّ هَؤُلَاءِ اَلْمُسْتَضْعَفِينَ وَالْقَابِعِينَ فِي اَلسُّجُونِ.

وَقَدْ كَانَ لِفَارِسَ نَصِيبُ مِنْهَا أَثْنَاءَ خُرُوجِهِ.

فَلَقَدْ تَعَرَّضَ لِضَرْبٍ مُبَرِّحٍ عَلَى كَتِفِهِ وَظَهْرِهِ وَقَدْ أَحَسَّ بِأَصْوَاتِ تِلْكَ اَلْعِظَامِ وَكَأَنَّهَا تَتَحَطَّمُ وَتَنْكَسِرُ لِتَتْرُكَ خَلْفِهَا آلَامُهَا وَأَوْجَاعُهَا.

فَارِس:

لَقَدْ صَعِدْنَا ذَلِكَ اَلدَّرَجِ اَلْعَالِي وَاَلَّذِي سَيَنْقُلُنَا مِنْ بَاطِنِ اَلْأَرْضِ وَأَعْمَاقِهَا إِلَى سَطْحِهَا ؛ لِنَشُمَّ رِيحَهَا وَنَكْتَوِي بِحَرَارَةِ شَمْسِهَا وَدِفْئِهَا سَأُحَاوِلُ أَنْ أَسْتَمْتِعَ بِهَا حَتَّى وَلَوْ كَانَتْ هِيَ اَللَّحَظَاتُ اَلْأَخِيرَةُ مِنْ حَيَاتِي فَلَقَدْ اِشْتَقْتُ لِرُؤْيَةِ اَلشَّمْسِ وَالْإِحْسَاسِ بِدِفْئِهَا وَحَرَارَتِهَا وَاشْتَقْتُ لِتِلْكَ اَلنَّسَمَاتِ اَلَّتِي تُغَذِّي اَلرُّوحَ وَتُنْعِشُ اَلْأَبْدَانُ وَتَجَدَّدَ فِينَا كُلُّ تِلْكَ اَلْآمَالِ اَلْمَيِّتَةِ .

وَعِنْدَ وُصُولِنَا لِأَعْلَى اَلدَّرَج وَرُؤْيَةِ تِلْكَ اَلْأَنْوارِ اَلسَّاطِعَةِ سَقطَتْ كُلُّ أَحْلَامِي فَلَمْ أَسْتَطِعْ فَتْحُ عَيْنِي أَمَامَ تِلْكَ اَلْأَشِعَّةِ اَلْحَارِقَةِ وَكَأَنَّهَا تَبدَّلَتْ وَكَأَنَّنِي لَمْ أَعْرِفْهَا وَلَمْ أَرَهَا أَوْ أَشْعُرُ بِهَا مِنْ قَبْلُ وَأَيْقَنَتْ أَنَّهُ اَلْفِرَاقُ وَطُولُ اَلْبُعْدِ.

فَلَقَدْ نَسِيتُ أَجْسَامُنَا كُلَّ تِلْكَ اَلتَّفَاصِيلِ وَلَمْ تَعُدْ تَعْتَادُ عَلَيْهَا وَأَصْبَحَتْ هَزِيلَةً وَضِعْفَيْهِ أَمَامَ رِيحِهَا وَأَنْوَارُ شَمْسِهَا وَدَخِيلَةِ عَلَيْهَا.

أَيُّ أَسَى وَايْ أَحْزَانٍ تَعْتَرِينَا وَايْ ظَالِمٍ قَدْ تُسَلِّطُ عَلَيْنَا وَقُيِّدَنَا بِحِبَالِ وَثِيقَةٍ لَمْ نُعِدْ نَقْدِرُ عَلَى حَمْلِهَا وَالْمُضِيُّ بِهَا.

أَيُّ أَسَى وَايْ أَلَمُ اَلَّذِي يَجْعَلُكَ تَسِيرُ بِطَرِيقِ اَلْمَوْتِ مُخْتَارٍ وَمُرْغَمًا فِي أَنَّ وَاحِدَةً وَعِنْدَمَا تُحَاوِلُ أَنْ تَعُودَ لِلْحَيَاةِ وَلَوْ لِبَعْضِ اَللَّحَظَاتِ تَفقَّدَ تِلْكَ اَللَّذَّةِ وَتَتَقَوْقَعُ خَوْفًا مِنْ تِلْكَ اَلْأَنْوَارِ اَلَّتِي اِشْتَقْتُ لِرُؤْيَتِهَا.

لَقَدْ صَعِدْنَا فِي تِلْكَ اَلسَّيَّارَةِ وَبِرُفْقَتِنَا جُثَّةُ ذَلِكَ اَلشَّخْصِ اَلَّذِي نَجْهَلُهُ وَنَعْلَمُ أَنَّ هُنَاكَ مِنْ يَنْتَظِرُ عَوْدَتَهُ إِلَيْهِمْ أَوْ رُبَّمَا يَعِيشُونَ عَلَى أَمَلِ لِقَائِهِ لَقَدْ تَرَكَهُمْ مُفَارِقًا دُون وَدَاعٍ وَلَنْ تَبْكِيَ عَلَيْهِ عُيُونُهُمْ مَيِّتًا بَلْ سَتَظَلُّ تَبْكِي عَلَيْهِ عُيُونُهُمْ شَوْقًا وَأَمَلاً بِلِقَائِهِ ؛ سَيَعِيشُونَ وَيَمُوتُونَ عَلَى ذَلِكَ اَلْأَمَلِ دُونَ أَنْ يُخْبِرَهُمْ أَحَدًا أَنَّهُ قَدْ غَادَرَ وَفَارَقَ اَلْحَيَاةَ دُونَ وَدَاعٍ .

فَارِس :

لَقَدْ وَصَلَتْ تِلْكَ اَلْحَافِلَةِ إِلَى تِلْكَ اَلْمُسْتَشْفَى اَلْمَشْؤُومَةِ وَاَلَّتِي تَفُوحُ مِنْهَا رَائِحَةَ اَلْمَوْتِ وَالْقَهْرِ وَاَلَّذِي طَالَمَا سُمِعَتْ عَنْ قَسَاوَتِهَا وَقَسَاوَةِ مِنْ يُدِيرُونَهَا.

كَانَتْ تِلْكَ هِيَ اَلنَّظْرَةُ اَلْأُولَى إِلَى ذَلِكَ اَلْبِنَاءِ اَلشَّاهِقِ وَرُبَّمَا تَكُونُ اَلْأَخِيرَةُ.

وَقَدْ أَخَذَتْ تَقْفِزُ إِلَى مُخَيِّلَتِي كُلَّ تِلْكَ اَلذِّكْرَيَاتِ وَكُلِّ تِلْكَ اَلْحِكَايَات اَلَّتِي سُمْعَتُهَا عَنْ هَذَا اَلْمَكَانِ وَبَدَتْ تَقْفِزُ أَمَامَ عَيْنِي كُلَّ تِلْكَ اَلصُّوَرِ وَاَلَّتِي فَارَقْتَهَا وَوَدَّعَتْهَا أَمَامَ جُدْرَانِ تِلْكَ اَلزِّنْزَانَةِ اَلْمَشْؤُومَةِ.

وَقَدْ تَكَلَّمَتْ دِمَائِهِمْ وَنَطَقَتْ كُلَّ تِلْكَ اَلْجُدْرَانِ بِحِكَايَاتِهِمْ وَآلَامِهِمْ وَكَأَنَّهَا تَتَبَرَّأُ مِنْ أَفْعَالِ سَاكِنِيهَا وَتَبُوحُ بِأَسْرَارٍ لَطَالَمَا جَهِلْنَاهَا وَجَهْلَهَا كُلَّ سَاكِنِي اَلدُّنْيَا أَوْ لَطَالَمَا حَاوَلُوا تَجَاهُلُهَا.

لَقَدْ تَحَدَّثَتْ عَنْ تِلْكَ اَلْأَحْلَامِ وَكُلِّ تِلْكَ اَلْآمَالِ وَاَلَّتِي قَدْ سَقَطَتْ حُرُوفَهَا وَتَبَخَّرَتْ أَوْرَاقَهَا وَامْتَزَجَتْ بِالدِّمَاءِ وَالْمَوْتِ بَدَلَ أَنْ تَمْتَزِجَ بِحِبْرِ اَلْحَيَاةِ وَيَقِينِ اَلْبَقَاءِ.

وَايْ بَقَاءَ وَايْ أَمَلٌ سَنَحْمِلُهُ فِي قُلُوبِنَا وَنَضَعَهُ نُصِبَ عَيْنَيْنَا وَنُذَكِّرُ بِهِ اَلْأَجْيَالُ جِيل بَعْدَ جِيلِ هَلْ سَنَذْكُرُهُمْ بِتِلْكَ اَلْأَبْنِيَةِ وَاَلَّتِي كَانَتْ مَقَابِرُ لأبنائها؟

أَمْ نَذْكُرُهُمْ بِتِلْكَ اَلْأَنْهَارِ وَاَلَّتِي جَرَفَتْ جُثَثَهُمْ وَأَبْعَدَتْهُمْ عَمَّنْ يُحِبُّونَ؟

أَمْ نَذْكُرُهُمْ بِتِلْكَ اَلْأَرْضِ اَلثَّابِتَةِ وَاَلَّتِي بَذَلْنَا لِأَجْلِهَا اَلْغَالِي وَالنَّفِيسِ وَأَخْفَتْ تِلْكَ اَلْجُثَثِ دُونَ أَنْ تُلَامَ عَلَيْهَا أَوْ تَبُوحُ بِأَسْرَارِهَا وَتَحَدَّثْنَا بِمَا تُخْفِي فِي طَيَّاتِهَا.

أُمٌّ نَذْكُرهُمْ بِتِلْكَ اَلسَّمَاءِ اَلَّتِي نَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا وَكَانَتْ تَحَمُّلُ لَنَا اَلْمَوْتُ بَدَلَ أَنْ تُمْطِرَنَا بِخَيْرَاتِهَا.
أُمٌّ أَيِّ لَوْمٍ سَيَكْفِينَا عَنْ جَارٍ أَرَادَ ذُلَّنَا وَاخْتَارَ أَنْ يَحْفِرَ قُبُورَنَا بِيَدَيْهِ لِتَأْتِيَ يَدِ اَلظَّالِمِ وَتَرْمِينَا بِدَاخِلِهَا.

لَمْ أَكُنْ يَوْمًا مِمَّنْ يُحِبُّونَ اَلْحَيَاةُ وَلَكِنَّنِي دَائِمًا كُنْتَ أَحْلُمُ أَنْ أَكُونَ مِمَّنْ يعيشون بِكَرَامَةٍ فَوْقَ تُرَابِ وَطَنٍ أَتْعَبَهُ اَلْخَرِيفُ اَلطَّوِيلُ وَاسْتَمْلَكَهُ ذَلِكَ اَلْعَاجِزِ اَلَّذِي نَسِيَ أَنْ يَرْوِيَ تُرَابُهُ أَوْ أَنْ يَصْلُحَ تِلْكَ اَلْأَشْجَارِ اَلَّتِي اِسْتَفْحَلَ فِيهَا اَلْمَرَضُ وَتَسَاقَطَتْ أَوْرَاقَهَا اَلْخَضْرَاءَ وَبَانَتْ شَيْخُوخَةُ جُذُورِهَا وَأَغْصَانِهَا.

لَيْتَهَا أَنْصَفَتْنِي وَتَرَكَتْ لِلْأَحْلَامِ بَقِيَّةً فِي وَطَنٍ يَحْكُمُهُ اَلْأَقْزَامُ وَأُولَاءِكَ اَلسَّاذِجُونَ اَلَّذِينَ يُعْجِزُهُمْ اَلْكَلَامُ وَتَحَرِّكُهُمْ عَصَا اَلْأَغْنَامِ.

وَكَيْفَ لِوَطَن أَنْ يُعْطِيَنِي مَا أُرِيدُ وَحُلْمُ أَبْنَاؤُهُ اَلْهِجْرَةَ وَتَرْكَ اَلدِّيَارِ.

وَكَيْفَ لِوَطَن أَنْ يُعْطِيَنِي مَا أُرِيدُ وَقَدْ تُسَلِّطُ عَلَيْنَا اَلْجَاهِلُونَ وَأَمَرُوا بِتَكْسِيرِ اَلْأَقْلَامِ.

وَإِنِّي أَتَسَاءَلُ أَيُّ جُنُونٍ أَصَابَ مَحْمُودْ دَرْوِيشْ تِلْكَ اَللَّيْلَةَ اَلَّتِي كَتَبَ فِيهَا قَصِيدَتَهُ اَلسَّاذِجَةَ؟ سَأُصْبِحُ يَوْمًا مَا أُرِيدُ مَاذَا كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ سَيُصْبِحُ فِي وَطَنٍ لَا يُؤْمِنُ بِالشِّعْرِ وَلَا بِالرِّوَايَةِ؟

مَاذَا كَانَ سَيُصْبِحُ فِي وَطَنِ خُصُورِ اَلنِّسَاءِ فِيهِ تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ أَكْثَرَ مِنْ اَلْكِتَابِ وَالْكَلِمَةِ؟

أَكَانَ يَعْرِفُ أَنَّ شَمْعَتَهُ سَتَنْطَفِئُ؟

وَهُوَ وَحِيدٌ مَنْفِيٌّ فِي مَصَحَّاتِ أَمْرِيكَا أَكَانَ يَعْرِفُ أَنَّهُ سَيُصْبِحُ عِظَامًا تُدْفَنُ فِي أَرْضٍ لَا تُرَفْرِفُ فَوْقَهَا رَايَةُ فِلَسْطِينَ اَلْمُحَرَّرَةِ؟

أَكَانَ يَعْرِفُ أَنَّ قَبْرَهُ سَيُضَاءُ بِشُمُوعِ قُرَّائِهِ فِي اَللَّيْلَةِ اَلْأُولَى لِدَفْنِهِ؟

لِتُضِيئَهُ صَوَارِيخ إِسْرَائِيلَ وَطَائِرَاتِهَا فِي اَللَّيْلَةِ اَلتَّالِيَةِ.

لَقَدْ غَادَرْنَا دَرْوِيشْ وَفِي ذِمَّتِهِ اَلْقَصِيدَةِ اَلْأَخِيرَةِ اَلَّتِي لَمْ يَكْتُبْهَا فَهَلْ حَقًّا صَارَ مَا يُرِيدُ؟

وَلَمْ تَنْتَهِ حِكَايَتِي هُنَا فَلَقَدْ رَأَيْتُ بأم عَيْنِي وَسُمِعَتْ بِأُذُنِي كُلَّ تِلْكَ اَلْحِكَايَاتِ اَلَّتِي قَدْ رُوِيتْ لَمْ تَكُنْ ضَرْبًا مِنْ اَلْخَيَالِ أَوْ حِكَايَةٍ خَيَالِيَّةٍ يَتَسَامَرُ بِهَا اَلْجَالِسُونَ أَنَّهَا حِكَايَةُ شَعْبٍ لَمْ تَعُدْ تَعْنِيهُ اَلْحَيَاةُ أَكْثَرَ مِنْ اَلْمَوْتِ.

وَإِنِّي أَتَسَاءَلُ كَيْفَ لِتِلْكَ اَلْأَلْسِنَةِ أَنْ تُكَذِّبَ وَقَدْ اِحْتَرَقَتْ بِتِلْكَ اَلنِّيرَانِ وكَيْفَ لِتِلْكَ اَلْأَلْسِنَةِ أَنْ تُكَذِّبَ وَقَدْ كَانَ مُقَدَّرًا لَهَا أَنْ تُفَارِقَ اَلْحَيَاةُ بِأَيِّ لَحْظَةٍ وَوَقْتٍ وكَيْفَ لِتِلْكَ اَلْأَلْسِنَةِ أَنْ تُكَذِّبَ وَكُلُّ تِلْكَ اَلْآثَارِ وَاضِحَةً عَلَى أَجْسَامِهِمْ ومَا زَالَتْ تَتَحَدَّثُ عَنْ تِلْكَ آلَامٌ.

لَقَدْ مَاتَ فَارِسُ فِي تِلْكَ اَللَّيْلَةَ مُسَوَّمًا بِتِلْكَ اَلْإِبْرَةِ وَاَلَّتِي تَحْمِلُ حِقْدَ كُلِّ اَلْعَالَمِ مَاتَ وَقَدْ اِرْتَسَمَتْ أَمَامَ عَيْنَيْهِ لَحظَاتِ لِقَاءٍ وَالِدِيَّةٍ وَتِلْكَ اَللَّحَظَاتُ اَلَّتِي عَاشَهَا عَلَى مَقَاعِدِ دِراسَتِهِ وَبَيْنَ أَفْرَادِ عَائِلَتِهِ وَإِخْوَتِهِ، مَاتَ فَارِسُ وَلَكِنَّ قَضِيَّتَهُ حَيَّةً لَنْ تَمُوتَ مَهْمَا حَاوَلُوا إِطْفَاءُ نُورِ اَلْحَقِّ وَدفْنِهَا خَلْفَ جِبَالٍ وَتِلَالٍ وَفِيٍّ وَديَّانْ وَآبَارُ وَبحَّارْ

لَمْ تَنْتَهِ قِصَّةُ فَارسٍ، فَفَارِسُ هُوَ ذَلِكَ اَلشَّابِّ اَلْمُنَاضِلِ كَبَقِيَّةِ اَلشَّبَاب فِي وَطَنِهِ نَاضَلَ مُنْذُ صِغَرهِ وَأَخْذُ حَلَمَةٍ يَكْبُرُ مَعَهُ كُلَّ يَوْمٍ وَيَتَجَدَّدُ أَمَلُ اَلْبَقَاءِ وَالنَّصْرِ فِي عَيْنَيْهِ كُلَّ يَوْمٍ.

فَارِسُ هُوَ ذَلِكَ اَلشَّابِّ اَلْمُهَاجِرْ وَذَلِكَ اَلشَّابُّ اَلْمُقَاتِلُ وَذَلِكَ اَلشَّابُّ اَلَّذِي فَارَقَ عَائِلَتَهُ وَغَيْبُ اَلْمَوْتِ أَحْبَابَهُ وَأَصْدِقَاءَهُ

فَارِسَ:

هُوَ ذَلِكَ اَلشَّابِّ اَلَّذِي اِبْتَلَعَهُ اَلْبَحْرُ وَافْتَرَسَتُهُ اَلْوُحُوش فِي تِلْكَ اَلْغَابَاتِ أَثْنَاءَ هِجْرَتِهِ وَحَضَنَتْهُ تِلْكَ اَلثُّلُوجِ لِتَدْفِنهُ فِي بَيَاضِهَا وَتُزِيحُ عَنْهُ كُلُّ ذَلِكَ اَلسَّوَادِ فَارِسِ هُوَ ذَلِكَ اَلشَّابِّ اَلَّذِي أَبْدَعَ وَأَبْهَرَ اَلدُّنْيَا بِنَجَاحِهِ خَارِجَ تِلْكَ اَلْقُيُودِ وَكَانَ اَلْمُهَنْدِسُ وَالطَّبِيبِ وَالْعَالَم.

فَارِسُ هُوَ ذَلِكَ اَلشَّابِّ وَاَلَّذِي رَفَضَ اَلرَّحِيلُ وَاخْتَارَ اَلنِّضَالُ وَالْمَوْتُ عَلَى تُرَابِ ذَلِكَ اَلْوَطَنِ وَاَلَّذِي أَصْبَحَ أَسِيرًا مُكَبَّلاً بِالْقُيُودِ.

فَارِسٌ حَيٌّ وَلَنْ يَمُوتَ هُوَ حَيًّا فِي نُفُوسِنَا، وَحْي فِي قُلُوبِنَا وَسَتحْمِلُ شُعْلَتَهُ أَجْيَالاً وَأَجْيَالاً.

وَمَهْمَا سَقَطَتْ حُرُوفٌ وَرَحَّلَت صُوَرَ وَتَبَدَّلَتْ أَقْدَارٌ سَتَظَلٌّ مَنَارَةً تُنِيرُ دَرْبَ اَلْأَجْيَالِ جِيلٌ بَعْدَ جِيلٍ وَعَامٍ بَعْدَ عَامٍ.

النهاية...

أيها الراحلون

كلنا راحلون تحركنا الاقدار كيف تشاء

فمهما صنعت لن تبلغ الهدى ولن تبلغ عنان السماء

فكلما مضيت وظننت انك قد وصلت وعلى الطريق اهتديت

ترى سراب يحسبة الظمأن ماء

الطريق اتجاهان..

والحياة لا تخلو من الاحزان..

فقط تذكر انك تستطيع...

وأنك لوحدك تصارع الاقدار...

كن لنفسك الوطن والسعاده

لانك تستحق

مهند محمد